وفطرته التى فطر الناس عليها

الإمام المجدد

السيد محمد ماضى أبو العزائم

Abul Azayem
www.abulazayem.com

Version 3 / October, 2024

الإسلام دين الله

وفطرته التى فطر الناس عليها

الإمام المجدد

السيد محمد ماضى أبو العزائم

١٢٨٦ - ١٣٥٦ هجرية / ١٨٦٩-١٩٣٧ ميلادية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ولىِّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله، بدور الهدى، وبحور الندى.

وبعد، فيقول خديم الفقراء محمد ماضى أبو العزائم: إنى بعد أن أكرمنى الله تعالى بتأليف الكتب الجامعة للعقيدة والعبادات والأخلاق والآداب، والسير والسلوك، وبيان الإشارات الروحانية ومقامات المقربين وعلوم أهل اليقين، شرح الله سبحانه وتعالى صدرى لأن أكتب كتاباً مبيناً فيه ما خفى على أهل هذا العصر من أسرار الدين، مفصلاً فيه ما خفى من آثار السلف الصالح، ليجدد أهل الله تعالى آثارهم الدارسة وأسرارهم الخافية، وقد أعاننى الله تعالى على هذا العمل البار، فجمعت الحقائق الثلاث: الدين والوطن والنسب، ووضعت لكل حقيقة من تلك الحقائق كتاباً خاصاً بها يبين روح الشريعة فيها، حتى يتحقق كل مسلم أن الدين هو الإسلام، وأن الوطن هو الإسلام، وأن النسب هو الإسلام، وأن يسارع إلى الخير الحقيقى الذى سارع إليه أصحاب رسول الله وتابعوهم بإحسان، طمعاً فى نيل العزة بالله، والسعادة فى الدنيا، والتمكين فى الأرض بالحق، والفوز برضوان الله الأكبر، والنعيم المقيم فى جوار رسول الله ﷺ.

وهذا هو كتاب " الإسلام دين الله" أتقرب به إلى الله تعالى وإلى رسول الله ﷺ، وأسأل الله تعالى أن يتقبله بقبول حسن، وأن ينفع به إخوتى المسلمين، وإنى على يقين حق أن ما كان فيه من الحق فهو من الله تعالى بتوفيقه وحسن عنايته، وما كان من خطأ فهو منى لعجلتى ونسيانى، والله غفور رحيم، أسأله أن يتوفانى مسلماً ويلحقنى بالصالحين، وأن يغفر لى عجلتى ونسيانى، وأن يجدد آثار سلفنا الصالح بمحو البدع والضلالات، وإعادة المجد لنا بإهلاك أعداء الله وأعداء رسوله وأعدائنا، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

خديم الفقراء

محمد ماضى أبو العزائم

الدين

تعريف الدين

الدين وضع إلهى، يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عن الرسول صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم. أو وضع إلهى سائغ لذوى العقول السليمة باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات. أو دين الله المرضى الذى لا لبس فيه ولا حجاب عليه ولا عوج له، أو هو إطلاعه تعالى عبده على قيوميته الظاهرة بكل ناد وفى كل باد وعلى كل باد وأظهر من كل باد، وعظمته الحقية التى لا يشير إليها اسم ولا يحيزها رسم، وهى مداد كل مداد، هذه التعاريف التى بينا بها رسم الدين وإن اختلفت عبارتها فمدلولها فى الجملة واحد.

حكمة اختصاص الإنسان بتحمل الأمانة

لاشك أن الإنسان كما بينا فيما سبق لنا من الكتب هو العالم الوسط الذى خلقه الله تعالى صالحاً للدارين، مؤهلاً لأن يتجمل بالكمالات حتى يكون فى أعلى الجنات، تتولى خدمته الملائكة بعناية الله تعالى وحسن تدبيره، أو يتعشق الضلالات وتستعبده الشهوات، حتى يكون فى هاوية السخط والمقت أسفل سافلين فى العذاب الأليم مع الشياطين، ولهذا فإن الله سبحانه وتعالى جعله محل البلوى بنص قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ الأحزاب ٧٢، وقوله سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ المؤمنون ١١٥، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ محمد ٣١، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾ الدخان ٣٨، وقوله جلت قدرته: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ الأنبياء ١٧، وقوله صلوات الله وسلامه عليه: (اعملُوا فكلٌ مُيَسّرٌ لِما خُلِقَ لَهُ) وحيث أن الله سبحانه وتعالى خلقه صالحاً للدارين، ركبه جلت قدرته من قوى متباينة، بعضها يفارقه، وبعضها لا يفارقه.

القوى التى لا تفارقه

للنفس قوى تعمل أعمالها بالآلات الجسمانية كالغاذية والمربية والمولدة، وتلك القوى لها الرئاسة على أنواع أخرى تخدمها، ومنها القوى المدركة وهى ظاهرة وباطنة، فالظاهرة منها هى الحواس، والباطنة هى المتخيلة والواهمة والذاكرة والمفكرة، والقوى المحركة الشهوانية والغضبية، والقوى التى تحرك الأعضاء، وكل تلك القوى التى ذكرناها تعمل أعمالها بآلة وإن لم تر بعض الآلات لأنه لابد من ذلك، وجميعها لا يفارق الإنسان.

القوى المفارقة

القوى المفارقة هى كثيرة، منها العقل العلمى، وهو الذى يستنبط ما يجب فعله من الأعمال الإنسانية، ويقيس الأشباه والنظائر التى لم يرد بها نص صريح لا فى الكتاب ولا فى السُنة بالجزئيات المستنبطة من الكتاب والسُنة، ومن تلك القوى العقل العملى، وهو الذى يتم به جوهر النفس وتصير نفساً طاهرة زكية بالفعل، وتتفاوت مراتبه فقد يكون بالوهب أو بالكسب.

تلك القوى التى تدرك المعقولات روح مجردة ليست بجسم، ولكن لا تؤدى أعمالها الخاصة بها إلا بواسطة آلاتها الجسمانية، لأنها مفارقة للإنسان من نوع قواه، تلك الروح تبقى بعد موت البدن لأنها ليست قابلة للفساد، وهى الروح المعنية بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ ص٧٢، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ الفجر٢٧-٣٠، وهذه الروح هى الإنسان على الحقيقة، وبدونها فهو كالأنعام بل أضل، وإنما تفاض من المنعم الوهاب عند إرادته ذلك بإيجاده سبحانه الشئ الصالح لقبولها وهو البدن الإنسانى الذى يمثل الكمالات الروحانية، وتتجلى به الأخلاق الربانية، وقليل ما هم.

عناية الله تعالى بالإنسان

لكل تلك المعانى اقتضت حكمة الله تعالى العناية بهذا النوع حتى حمله الأمانة، وهى الخلافة عنه سبحانه وعبادته، والقيام بما أوجبه مشاهداً جماله العلى وجلاله الربانى فى كل

عمل، حتى لا يغيب عن الحق ولا ينسى عهده ﴿أَلَسْتُ﴾ الأعراف١٧٢، وهو العهد الذى أخذه الله على بنى آدم بقوله عز وجل ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الأعراف١٧٢، فسخر له ما فى السماوات وما فى الأرض فضلاً منه، وأمده تنزهت ذاته بما به يمكنه أن يتصرف فى الأرض، ويقوم بحقوق الخلافة عن الرب، مجاهداً نفسه وهواه فى ذات الله تعالى، ناهجاً المنهج الذى وضعه الله لنا ضامناً لنيل سعادته فى الدارين، من العقيدة الحقة التى هى الحقيقة فى نفس الأمر، والعبادات الخالصة التى رضيها سبحانه لنفسه من عباده المخلصين، والمعاملات الحسنة التى بها يكون الإنسان أخاً للإنسان، وعضواً متمماً للجسد الذى تمثله كل أفراد بنى الإنسان، والأخلاق الربانية التى يكون بجميعها إنساناً روحانياً كاملاً فوق الملائكة منزلة، وإن كان فى الظاهر هو الهيكل الإنسانى الذى يأكل وينام ويمشى فى الأسواق.

إذا تقرر ذلك فبنو الإنسان ينتظرون من الله تعالى رسولاً كريماً عليه يأتيهم من قبله سبحانه وتعالى، مبيناً لهم جزئيات كل تلك المعانى التى لا ينالون السعادة الحقيقية إلا بها، وكل من أتانا بنوع واحد من تلك الأنواع نعتبره يؤهلنا لشوق أنوار هذا الرسول الكريم، ويعدنا لأن نكون صالحين لنيل الكمالات العالية التى يأتينا بها من قِبَل ربنا سبحانه وتعالى، وبذلك يكون ما أتى به ﷺ هو دين الله حقاً، الذى لا يقبل الله تعالى بعد ظهوره من أحد صرفاً ولا عدلاً ما لم يؤمن به ﷺ ويتبعه ﷺ، وقد بحث العقل بقواه كلها فى كل ما جاء به ﷺ بعد حكمه بأن الله أرسل رسلاً كثيرين، وتصديقه بهم عليهم الصلاة والسلام أجمعين فى كل ما جاءوا به فحكم حكماً نهائياً أن كل رسول جاء قبل سيدنا ومولانا محمد ﷺ، إنما جاء ليعد بنى الإنسان لنيل تلك السعادة القصوى التى لا تنال إلا بظهوره ﷺ.

وهذه الأسفار السماوية لو تتبعها الحكيم الألمعى، لوجد بعضها يومئ إلى تكميل القوى الجسمانية وتقويمها دون نظر إلى النفس، وبعضها يبين طرق تزكية النفس مع إهمال ما يجب على الأبدان التى هى الآلات للنفس، وإغفال ما لابد أن يكون عليه الإنسان فى كل أنواع المجتمع الإنسانى صغيرها ووسطها وكبيرها، وترك بيان مرتبة الإنسان ومنزلته بين العوالم كلها، حتى أن بعض الكتب صرح بأن البعث بالنفس دون الجسم إهمالاً للأجسام التى بها ظهرت تلك المعانى الروحانية، وقامت أعمالها الخاصة بها.

ولم يرسل الله تعالى رسولاً يدعو الناس إلى الخير الحقيقى والسعادة الحقيقة فى الدارين، مبيناً أنواع الكمالات الإنسانية كلها عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاقاً، وموضحاً الآداب التى تجعل الإنسان أهلاً لأن يكون فى معية ربه فى الدنيا والآخرة، وصورة كاملة مجملة بالأخلاق الربانية حتى يحصل له الخير الحقيقى وتتم له السعادة الحقيقية روحاً وجسماً، إلا سيدنا ومولانا محمداً ﷺ.

إن الدين عند الله الإسلام

لما تقدم يحق لى أن أقول: إن الإسلام هو الدين حقاً، وإن الأديان التى جاءت بها الرسل قبل نبينا ﷺ كانت أدياناً قبل بعثته ﷺ، ثم نسخت بدينه الناسخ لكل دين قبله، فمثله ومثلهم ﷺ أجمعين كالأنجم الزاهرة التى يستضاء بها فى ظلمة الليل، فإذا أشرقت الشمس حجبت ما هنالك من النجوم، فمن غض بصره عن الشمس ولم يهتد بها جنى على نفسه أكبر جناية، وخسر خساناً مبيناً، لاسيما وأن تلك الشمس لا تغيب أبداً، لأنه ﷺ خاتم الرسل ولا نبى بعده، ولا يزال نوره مشرقاً فى الآفاق بأعمال وأقوال وأحوال خلفائه ﷺ الهادين المهتدين الراشدين من العارفين والأئمة، فالعارفين والأئمة من المسلمين أمثال الأنجم المضيئة بنور الشمس فى إقفالها.

حكمة إنزال الكتب السابقة

لو تتبعنا كل ما جاء فى صحف وأسفار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بإمعان وروية، لظهر لنا جلياً أن كل الكتب السماوية السابقة أنزلت لتنويع الأفكار، وتطهير الأخلاق من النجاسات والنقائص، ليستعد الإنسان بالتخلى للتجمل بالجمال الحقيقى بعد الطهارة من الدنس والأرجاس.

وذلك لأنا نرى كل رسول من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أتى قومه يدعوهم إلى الاستغفار من خطاياهم، أو إلى ترك قبيح من التى تعودوها، شأن من يؤهل الناس ويعدهم للوصول إلى من يتكملون على يده بما به يكونون فى أمن وهداية وعزة وسعادة.

انظر إلى سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام، فلقد دعا قومه إلى أن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه، فأبوا عليه أن يسمعوا ويطيعوا، حتى باغتتهم النقمة، وهى من كبريات الآيات، وكان ممن لم يقبل الهدى ابن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام حتى هلك بالطوفان.

وجاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى ترك الشرك بالله، وأقام الحجة بما تلين له الأحجار الصم فأبوا عليه.

وأتى سيدنا لوط عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى ترك الفاحشة.

وأتى سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام يدعو إلى ترك الظلم واستعباد عباد الله.

وأتى سيدنا عيسى عليه السلام يدعو إلى الخلاص من الدنيا وترك العمل لها، والإقبال على الآخرة التى يسميها الملكوت.

يظهر كل ذلك لمن استقرأ ما ترمى إليه الكتب السماوية قبل القرآن المجيد، حتى أشرقت الشمس التى ظهر بنورها الحق، وتبين طريق السعادتين ببعثة سيدنا ومولانا محمد ﷺ، ومع هذا كله فإنه ما من نبى ولا رسول إلا بشر بالرسول الذى يرسله الله كافة للناس، وسماه باسمه وبين لقومه كريم نعوته وشريف صفاته صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وسأبين إن شاء الله تعالى فى آخر هذا الكتاب بشائر الأنبياء عليهم السلام فى صحفهم من التوراة والإنجيل، عند دعوة النصارى واليهود إلى الإسلام، ونبوآتهم ببعثه خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام، ولا يخفى كل ذلك إلا على مكابر.

الدين الجامع

لاشك أن الدين الذى يجب أن يدين به العالم أجمع لابد أن يكون مستوفياً للأحكام التى تكون بها سعادة الإنسان دنيا وأخرى، وكمالاته النفسانية، وجمالاته الجسمانية متجملاً بحقيقة الخلافة عن ربه، قائماً بحسن رعاية ما استرعاه الله، عاملاً من عمال الله فى أرض الله، حاضراً مع الله بروحه، قريباً من الله بأخلاقه وأعماله، مشاهداً لله بمراقبته ومحاسبته

لنفسه، ذاكراً فاكراً لا غافلاً ولا ناسياً، يشهد بنور بصيرته الحق قبل أن تشهد عين بصره الخلق، يرضى الله فى خلقه ولو أغضبوه فى حظهم، ويعمل لله فى السر كما يعمل له سبحانه فى العلانية، لأنه يراه بنور سره، أو يوقن أن الله يراه حيث كان، وهى منزلة عامة المؤمنين، لأن المؤمن الكامل مع الله فى كل حاله وشأنه، وغيره من المؤمنين موقن أن الله يراه فى حركاته وسكناته، وهو مقام الحفظ الإلهى وسر قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأنعام ٨٢، ودون هاتين المنزلتين غافل يدعى أنه مؤمن فيجب أن ينبه، أو ساه يجهل حقوق الإيمان فينبغى أن يذكر.

ولم يجمع تلك المعانى كلها إلا كتاب الله تعالى، وسُنة رسول الله ﷺ فظهرت جمالاتها جلية وأسرارها علناً، حتى بلغ المسلم مقاماً من مقامات اليقين، يكاشفه الله بما كاشف به أنبياءه المقربين، من معانى صفاته القدسية، وأسرار تجليات أسمائه العلية، ويهب له الحكمة وفصل الخطاب، فصار به وارثاً من ورثة رسل الله عليهم الصلاة والسلام، وبدلاً من أبدال أولى العزم عليهم الصلاة والسلام وهم كثيرون فى المسلمين لا يخلو منهم زمان، أسرارهم جلية وأحوالهم علية وأنوارهم مضيئة وعزائمهم ماضية، لأن كل تلك المعانى لم يأت بها رسول قط، ولا أنزلها الله كاملة فى كتاب قط قبل سيدنا ومولانا محمد ﷺ، وقد تفضل الله بها علينا فضلاً منه وكرماً، له الحمد والشكر، لا نحصى ثناء عليه سبحانه، فهو كما أثنى على نفسه.

إذا تقرر ذلك ظهر جلياً أن الإسلام هو الدين حقاً، وأن الدين هو الإسلام، ولن يقبل الله من أحد ابتغى غير الإسلام ديناً.

على أنى معتقد أن القرآن المجيد أنزله الله تعالى جامعاً لكل ما أنزله على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، قبل سيدنا ومولانا محمد ﷺ، ثم تفضل فأتم نعمته علينا وأكمل لنا ديننا الذى ارتضى لنا، وبين لنا فى القرآن المجيد كل شئ لم ينزله من قبل فالكتب السابقة كانت كالتعليم فى الصغر الذى لابد أن يكون مناسباً لقوة العقل، حتى إذا تمكن من المبادئ الأولية ترقى فى مراقى المعارف والحكم والأحكام، حتى يبلغ مبلغاً يمكنه فيه أن

يتلقى العلوم العالية، حتى يبلغ نهاية العلوم وغاية الفهوم، فكأن الرسل السابقين كأساتذة للإنسان فى سن الطفولية، يؤهلونه للتلقى عمن هو أرقى منهم، ذلك هو السيد الكريم والرءوف الرحيم إمام الأئمة ورسول الرسل عليهم الصلاة والسلام، الذى جمع الله له العلم والمعلوم، والاسم والمسمى، واللفظ والمعنى، والروح والجسد، فكان خاتم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، ورسولاً للناس عامة، فمن لم يؤمن به كفر، ومن ائتم بغيره هلك، ولو أدركه موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ما وسعهما إلا اتباعه، صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه وسلم.

الباب الثانى

أسس الدين الإسلامى

وهنا ينبغى أن أفصل ما أجملت، وأبين ما أبهمت، من أسس الدين الإسلامى التى هى: العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، وما يتجمل به المسلم باتباعه للسُنة والكتاب مبتدئاً بالعقيدة.

المبحث الأول

العقيدة

سبق لنا شرح ما يجب أن يعقد عليه القلب فى كتاب "أصول الوصول" مما أجمع عليه أهل السنة، ثم بينا اختلاف الفرق الإسلامية فى بعض ما يجب اعتقاده، فيما ليس من الأصول الكلية فى أساس التوحيد، كالخلاف فى أفعال العبد وغيرها مما بينه أهل السُنة والمعتزلة وغيرها، ثم أعقبنا ذلك بمذهب السلف الصالح موضحاً بتفصيل فى كتاب "معارج المقربين" توضيحاً لا يحتاج المطالع بعده إلى بيان.

ولما كان الغرض من هذا المختصر بيان بعض جمال الإسلام، وما يتكمل به المحافظ على حدود الله تعالى فى الدنيا، وما يفوز به من النعيم الأبدى فى الآخرة، أحببت أن لا أخليه من مزيد بيان يكون به النفع أعم والخير أشمل، ولمزيد البيان أبتدئ بذكر نوع من طرق تعليم العقيدة.

قبل أن نبين الأصول التى يجب أن يعقد المسلم قلبه عليها، أشرح الطريقة التى يجب أن يلاحظها المعلم عند إلقاء درس العقيدة.

سبق لنا أن الإيمان مقدم على العلم، ووضح الحق بلا ريب بما قررناه فى كتاب "معارج المقربين" فى موضع العلم والإيمان، قال سيدنا أبو هريرة ﷺ: (كنا نتعلم الإيمان قبل القرآن، وأنتم تتعلمون القرآن قبل الإيمان).

ومعنى ذلك أن الصحابة رضوان الله عنهم كانوا يتعلمون التصديق قبل العلم، حتى إذا تعلم أحدهم القرآن بعد التصديق كان كما قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ البقرة ٢٨٢، فإن الإيمان برهان حق على صفاء جوهر النفس، والتكذيب دليل على مرض النفس ونجاستها، لأن النفس الصافية الجوهر تقبل الحق بسرعة لأنه جلى لها، ولكنها كالمهملة قبل إخبارها بالحق، وعندما يخبرها الصادق عن الحق بالحق تقبل مصدقة.

الغرض من دراسة علم التوحيد

لما كان لابد من التصديق قبل العلم، لزم أن نبدأ بتعليم التصديق، حتى يكون العلم موجباً لليقين الذى يجعل النفس تستحضر تلك المعانى استحضاراً بقدرها لا بقدر الجناب المقدس ويجعلها تنجذب إلى الحق بكليتها وتسارع فى مرضاته، وتفر من موجبات غضبه، حتى يبلغ بها العلم من استحضار تلك المعانى مبلغاً يجعل المسلم حسن التوكل على الله، كامل الثقة بالله، عظيم الرغبة فى الله، شديد الرهبة من الله، مطمئن القلب بالله، لا تلم بقلبه لمة شيطان فيهم بمخالفة الشرع، ولا يهجس بسره هاجس شك فيتأول كلام الله برأيه، ويجرؤ على فعل القبائح والمنكرات، بل قد يبلغ به اليقين مبلغاً حتى يكون إذا ألقى عليه درس فى التوحيد كأنه يرى تلك المعانى، لما تقتبسه نفسه من قبس الأنوار القدسية عند سماع صفات الحق سبحانه، وهذا هو الغرض من دراسة علم التوحيد، وليس الغرض منه تشكيك المسلم وتنمية قوة الإنكار والجدل، وتعليمه سوء الأدب مع الأئمة الهداة حتى يبلغ به الجهل مبلغاً يجعله ينكر على العلماء.

وقد ظهر الفساد حتى صار بعض المعلمين يجلس فى مجلسه فيقرر درساً من التوحيد، وتدعوه نفسه إلى أن يظهر قدر علمه ومقدرته على إيراد الشبه وردها بالأقيسة، ويظن المسكين أنه أرضى ربه لما أظهر من أبواب الشبه وما أبدى من دقائق المباحث، وفى الحقيقة أنه أفسد عقول المتعلمين وأبدل اليقين بالشك، والتصديق بالريب، ونجس الآذان بما لا يفيد، وأطفأ نور القلوب بما يظنه خيراً، فيجلس المعلم السنين الطوال يُعلم الفقه والتوحيد والأصول، ولم يوفقه الله تعالى أن يقول فى درسه: قال الله ولا قال رسول الله، حتى يتخيل

بعض المتعلمين أن القرآن الشريف إنما يحفظه أهل العاهات ليكون وسيلة للرزق، وأن كتب السُنة يحفظها العامة لتكون تمائم فى بيوتهم، فصارت مناهج الكتاب والسُنة خفية، وأصبحت القلوب إذا تلى كتاب الله عليها لا تفهم له معنى، بعد أن كانت تقشعر له الجلود، وتلين له القلوب والجلود، ويزداد بتلاوته الإيمان إذا قرئ، وإذا قرئ وجلت القلوب.

كان ذلك الحال فى السلف الصالح، لأن العالم أو المفتى إذا ذكر حكماً من أحكام الله تعالى قال: قال الله تعالى كذا. وكذلك كان المفتى بعد أن يقرر الجواب يقول: قال الله تعالى. بل كان الكاتب إذا كتب رسالة وُد يخللها بقال الله وقال رسول الله، والخطيب فى الصلح أو فى الزواج أو فى الحث على الفضائل أو فى بيان مكرمة يتخلل خطبته بقال الله وقال رسول الله، وصرنا فى زمان يجلس المتعلم أمام المعلم فلا يسمع إلا الشكوك والريب والاعتراض والجدل، ويجلس فى درس الفقه فلا يسمع إلا الخلاف والتضعيف ورأى فلان واستحسان فلان ونقل فلان.

مع أن السلف الصالح كانوا يقولون فى درس الطب: قال الله وقال رسول الله ﷺ، فكان الطبيب إذا نظر إلى ألطاف الله وأسرار الله كيف ركب الجسم وأودع تلك الخواص فى النباتات، افتتح كل موضع من الطب بقال رسول الله ﷺ: (المعدة بيتُ الداءِ والحِمْيةُ رأسُ الدواءِ).

كان البَنَاء إذا ابتدأ يبنى افتتح فقال: قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ النور ٣٦، وقال: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ التوبة ١٠٩، وبذكر أحاديث عن رسول الله ﷺ، وكان التاجر إذا دخل السوق قال: قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ البقرة ٢٧٥، حتى بلغ من ملاحظة القرآن وملاحظة كلام رسول الله ﷺ فى جميع أعمالهم، أن بعض السلف مكث سنين لا يتكلم مع الناس إلا بالقرآن، حتى فى شؤونه الخاصة.

* * *

طريـقة تعليم العقيدة

فطريقة تعليم العقيدة أن يبدأ المعلم بتعليم المتعلمين التصديق والتسليم لما يلقيه، لأنه أمر بديهى للعقول بعد الإيمان به وبيان دلائله، فإذا أنس منهم التصديق والتسليم نبه فكرهم بعد حفظ الصفات التى يجب أن يعقد قلبه عليها إلى ما يراه فيما حوله من الأنواع الكثيرة التى خلقت لأجله، وأنه ينتفع بجميعها ولولاها لكان من المستحيل أن يكون الإنسان موجوداً، خصوصاً الأشياء الضرورية كالهواء والماء والأرض التى يمشى عليها والشمس التى تضئ له وتعطيه الحرارة، فإذا تنبه قلبه وحضر لبه يجب أن تنقله إلى مقام أرقى من هذا، فتبين له أن تلك الأشياء لابد أن يكون خلقها قادر حكيم، أراد أن يخلقها صالحة لنفعنا، حتى يتنبه إلى برهان العناية والإيجاد، فيطمئن قلبه وينعقد على حب مولاه المتفضل عليه بالعناية والإيجاد، لأنه لو لم يكن الموجد للكائنات قادراً حكيماً مريداً أن يخلقها صالحة لنا ونافعة، بل وضرورية لوجودنا وبقائنا الزمن المقدر لنا، لم تكن تلك الأنواع مرتبة هذا الترتيب، ومنظمة هذا النظام.

فإذا أنس قلبه بأن هذا الكون أحدثه قادر حكيم بإرادة وتدبير، وأنه سبحانه وتعالى جعله مسخراً لنا بنى الإنسان، إذ ما من نوع من أنواع الكائنات إلا وهى لنفعنا وللذتنا ونعيمنا، ولتهذيب أخلاقنا وتزكية نفوسنا، فكان الكل مسخراً لنا حتى الوحش الضارى.

وبتلك الطريقة ترتقى بالمتعلم شيئاً فشيئاً، حتى يشتد تعظيمه وإجلاله لربه، وتقوى رغبته فيه سبحانه وتعالى، وحبه الحقيقى لمولاه سبحانه، والمسارعة فى طاعة أمره، فلا يلقى درساً فى معانى الصفات إلا ويشرق على القلب نور اليقين، حتى لو كشف الحجاب لم يزدد يقيناً.

فعلم التوحيد فى الحقيقة هو العلم الذى إذا اعتنى العلماء بدراسته على الوجه الذى كان عليه السلف، أصبح المسلم عزيزاً عاملاً للخير العام، لا يخاف إلا الله، ولا يرغب إلا فى الله، وتشتد تلك المراقبة حتى يتمثل عظيم نعمة الله، وجميل عناية الله به، فيستحى أن يرى نفسه مخالفاً لربه، أو ذليلاً لغيره، أو محتاجاً إلى غيره، وما من صفة من الصفات الإلهية إلا ويمكن

للعالم أن يشرح للمتعلم المقصود من العلم بها، فإن كانت صفة السمع بين له أن الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شئ من القول، ولا من العمل، فراقبه فى سرك وفى علنك، وهكذا فى كل صفة من الصفات يعتنى بتلك الحكم الجلية المرادة من دراسة هذا العلم، ليقوى الإيمان، وتقوى مراقبة العبد ربه ومحاسبته نفسه، وإنى والحمد لله قد جاهدت نفسى على أن أنهج هذا المنهج فى إلقاء دروس التوحيد، وببركة الاقتداء بالسلف الصالح حصل الخير للمتعلمين.

علم التوحيد

علم التوحيد رأس مال المؤمن، وحصنه الحصين، وذخيرته عند الشدة، ونجاته عند الفزع الأكبر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ النساء ٤٨، وبقدر إشراق أنواره على القلب يكون ارتفاع المسلم إلى درجات القرب ومنازل الحب، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٍ﴾ المجادلة ١١، إنما تكون مقامات اليقين كلها بقدر ذوق أسرار التوحيد، وفهم غوامضه والانتشال من أوحاله، وقد أصبحنا فى زمان صارت دراسة علم التوحيد تسلب الخشية من القلوب وتمرض النفوس، وتجعل المؤمن بعد أن كان مسلماً يخاف مقام ربه تعتوره الشكوك والريب، وبالإهمال فى هذا الركن الذى هو أصل الأصول تهاون المسلمون بحدود الله، وأهملوا فيما أوجبه سبحانه على المسلمين لجنابه المقدس، ولنبيه ﷺ، ولأنفسهم ولأرحامهم، ولخاصة المسلمين وعامتهم، فكادت عروة الإخاء الإسلامى تنفصم، ذلك كله من الجهل بطريقة تعليم علم التوحيد، وإنى أتقرب إلى الله تعالى بتلك العقيدة التى هى أنوار تسليم السلف وحصون حيطة الخلف، متوجهاً إلى الله سبحانه وتعالى أن يقبلها وينفع بها ويجعلها خالصة لوجهه الكريم، ويغفر لى عجلتى الفطرية، وأعوذ بوجهه الكريم من هوى يعمى ورأى يحجب وحظ يقطع عن حضرته العلية، وأسأله سبحانه الحفظ والوقاية والسلامة فى الدين والآخرة، إنه مجيب الدعاء.

❊ ❊ ❊

العقيدة التى يجب أن يعقد المسلم قلبه عليها

معلوم أن العقيدة هى عقد القلب على علم بمعلوم عقداً قوياً مؤكداً، وفى ذلك الإشارة إلى أن المسلم يجب عليه أن يكون علمه بالتوحيد عن يقين وتمكين، لأن الموقن حقاً بالتوحيد هو الذى يسمى مسلماً حقاً لقيامه بشعائر الإسلام عن وجد وشهود.

والعقيدة الإسلامية هى تصديق القلب بحقيقة ما عليه الأمر فى ذاته فى نفس الأمر، وطريق ذلك خبر الصادق الأمين، بعد أن يكون المتلقى صحيح الجسم كامل العقل، سريع الفهم قوى الفكر، معافى من أمراض الحظ وعمى الهوى، وبذلك يكون مؤمناً حقاً قائماً بما أوجبه الشرع، عاملاً من عمال الله، خليفة من خلفاء ربنا سبحانه وتعالى، وبدون تلك الشروط لا يبلغ المسلم تلك الكمالات إلا بقدر ما تجمل به من تلك الشروط، التى هى كالآلات والأدوات لكشف أسرار الدين وفك رموزه، فإن المعانى الإلهية من الكمالات الربانية والجمالات والجلالات لا يدركها العقل من حيث أنه عقل إلا بقدر ما يتضح له من الدلائل.

الآثار كنوز لم تفك رموزها

أكثر الدلائل معان قائمة بمبان مقيدة بأدوات وآلات وكيفيات، تتفاوت العقول فى إدراك خواصها فضلاً عن غوامض أسرارها، وكيف لا؟ والإنسان منذ سيدنا آدم عليه السلام وهو يجول بعقله فى ميدان الآثار، يرفع الخلف أسس السلف حتى عصرنا هذا، ولا تزال خواص الكائنات تنكشف شيئاً فشيئاً للعقول، وتظهر مكنوناتها مدهشة للمفكرين محيرة للمتأملين، ولا عجب، فإن القادر البديع الحكيم خلق الكون كله وسخره للإنسان، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾ الجاثية ١٣، وأمد الإنسان بالعقل، وجعل له السلطان على الآثار لتظهر حكمة التسخير.

ولو نظر الناظر إلى ما اكتشفه الإنسان من خواص النباتات والجمادات والمعادن لمعالجة المرضى، وما استخدمه بما وهبه الله من قوة العقل من البخار والكهرباء، وما اخترعه من

أنواع الصناعات الغريبة والفنون العجيبة، التى كلها إما لراحة الإنسان وخيره، أو لراحة فئة وشقاء آخرين، فالأول كعلم الطب والعمارات والتربية وعلوم الحكمة العملية، والثانى كفنون السياسات وتدبير الممالك واختراع الآلات الجهنمية لقهر بنى الإنسان.

ومع هذا كله فلا تزال الآثار كنوزاً لم تفك رموزها، وخزائن خيرات لم تفتح أبوابها، ورياض أفكار لم تفتق أكمامها، وهى بما فيها من الخواص معارج لمن سبقت لهم الحسنى، ومدارج لمن سبقت لهم السوءى، فالإنسان منذ سيدنا آدم عليه السلام إلى عصرنا هذا مع ما بلغه من الفنون والصناعات عاجز عن الحيطة بخواص المادة مما أودعه المنعم المتفضل النافع المعطى الوهاب من فضله فى الآثار، ووهب لبنى الإنسان القوى التى تكشف الستار عنها للنفع العام.

هذا هو أفق العقل، فإذا انكشف للعقل هذا الأفق فصار مبيناً، يوقن أن لهذه الآثار مبدعاً حكيماً بقدر ما أدرك من هذه الآثار، لا بقدر ما يليق بالجناب العلى المقدس، ولا يكون الإنسان مسلماً كامل الإسلام إلا إذا شهد بنور التسليم والإيمان لا بعيون العقل والإمكان آيات القادر الحكيم مشرقة أنوارها فى تلك المبانى، دالة على كمال التنزيه والعلو والعظمة والتقديس والكبرياء لذات الواحد الأحد سبحانه وتعالى، تنزيهاً وتقديساً يليقان بجناب الكبير المتعال، الذى لا تدركه سبحانه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، ولا تحوم حوالى عزته وجلاله أنوار عيون الروحانيين، ولا بصائر أولى العزم المكرمين ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الزمر ٦٧.

كيف يبلغ العقل والنفس درجة الإيمان الكامل؟

لا يمكن للعقول وإن كملت ولا للنفوس وإن تزكت أن تبلغ درجة الإيمان الكامل إلا بخبر الصادق المصدوق ﷺ، والتسليم لحضرته المحمدية صلوات الله وسلامه عليه، وبشئ آخر لابد منه، وهو النور الذى يجعله الله تعالى فى القلب فضلاً وكرماً، المُعَبَر عنه بالعقل الموهوب، فإن العبارات لا تفى بالكمالات الإلهية، بل ولا بالكمالات المحمدية، إلا بمشاهدة

بنور الإيمان، وتسليم حق وفقه للبيان، ولو أن كل فرد من بنى الإنسان وهبت له تلك المواهب لما اختلف اثنان فى الحق، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أن تطالب الإنسان بمعرفة الله بقدر ما لو قصر عنه الإنسان لهلك، لأن أصغر إنسان مؤهل لأن يعرف الحق سبحانه معرفة تحصل بها النجاة من الهول، والسلامة من المقت والسخط، وتتفاوت بعد ذلك مقامات أهل الخصوصيات فى هذا المجد العلى والخير الحقيقى، فمن الأفراد الخصوصيين من يهب له الله مواهب يبلغ بها مكاشفة المقربين، حتى لايقع بصره إلا على وجه الله العظيم، ولا يسير به وطر إلا إلى الجانب المقدس، ولا تلم به لمة إلا ملكوتية.

قلنا: وشئ آخر هو النور، فإن هذا الفضل العظيم الذى يجعله الله للعبد به يكشف أسرار هى الآن غيب وكانت شهوداً قبل، وهى تجلى الرب سبحانه وتعالى يوم قوله سبحانه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الأعراف ١٧٢، وأخذه العهود على الإنسان بعد الاعتراف بالتوحيد، والإقرار لله سبحانه بالربوبية، فإن تلك الحضرة لا يشهدها العقل، وإنما تُشهد بعيون الإيمان وبنور التسليم الذى يجعله الله فى قلب العبد، ولا شك أن ما ظهر عن تلك الآثار من الآيات الجلية إنما هى إشارات لكمالات المبدع الحكيم القادر، ومراء تمثل للقلوب السليمة كالمثل الذى يضرب لتقريب الحقيقة وإيضاحها بقدر ما قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إبراهيم ٢٥، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ النور ٣٥.

فكل إنسان لم يجعل له الله النور تسترت عنه الآيات، وحجبت عنه البينات، وصار ضالاً فى فيافى الحظوظ والأهواء، وعاملاً مجداً للفوز بحظه العاجل ولذته الفانية، لأنه لم تنكشف له آيات الحق الدالة على كمال قدرته، وعجائب حكمته، وجميل إيجاده وإمداده، وما أعده من الكمالات والنعيم الأبدى لمن اهتدى بهدى سيدنا ومولانا محمد ﷺ وعمل بسُنته، فيكون الذى حرمه الله من هذا النور كالأنعام بل هو أضل سبيلاً.

كل تلك المقدمات أرى أنها لابد منها، ولولا أن هذا المختصر لا يسع البيان كل البيان

لاستوفيت الموضوع، وقد شرحت بعض أسرار من الآيات المنبلجة فى الآثار فى كتاب "معارج المقربين" وجملاً من الكمالات والمقالات التى ينالها الإنسان بحسن الاقتداء برسول الله ﷺ فى كتاب "أصول الوصول لمعية الرسول ﷺ" وأشرت إلى شئ من وجوه التفكر فى السماوات والأرض وما فيهن، ببيان يجعل القارئ يشهد من أسرار الآيات ما يجعله فى مزيد من الإيمان، وكمال الإقبال على الله سبحانه وتعالى المنعم بكل تلك النعم فى كتاب "النور المبين لعلوم اليقين" فأكتفى هنا بما بينته.

ويحسن أن أقول: إن العقل لا يستقل بإدراك تلك الأسرار، ولا يمكنه أن يبلغ مبلغاً بالإنسان يجعله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، بل ولا يقتدر أن يجعل الإنسان سعيداً فى مجتمع مدنى سعادة معقولة يعم خيرها أفراد بنى الإنسان، فإن له منطقة خاصة به لا يتعداها، وإن كان هو الآلة لكل الخيرات فإنما يجول فى مادة موجودة ليخترع ما يلائمه، أو يستنتج منها نتائج معنوية تدل عليها بطريق الالتزام مما قد يخطئ فيه أو يصيب، فلم يبق طريق يبلغ به الإنسان السعادة الحقيقة والخير الحقيقى فى الدنيا والآخرة إلا خبر الصادق، الذى يقيم الحُجة للعقل أنه صادق حقاً فيسلم له ويستسلم، لديها يفوز بكل خير عاجل وآجل، ولا يمكن أن تتلقى العقيدة التى بها النجاة إلا من هذا الطريق، وقد شرحت جُملاً فى كتاب "أصول الوصول" ولكن لابد أن أبين ما الحاجة ماسة إليه، حتى لا يخلو هذا المختصر من أصل الأصول فأقول وبالله التوفيق:

العقيدة المأخوذة من كتاب الله تعالى وبيان رسوله ﷺ

مأخذها كتاب الله تعالى، وبيان رسول الله ﷺ، وما قرره بعد ذلك أئمة الهدى رضوان الله عليهم، وقام بتدوينه أهل العلم المخلصون خدمة للأصل الأول من أصول الدين الذى هو رأس المال لكل مسلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ النساء ٤٨، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ الأنبياء ٢٥، وقوله جل شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ الزمر ٣٨، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ الزخرف ٩،

وقال ﷺ: (مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِٱللهِ شيْئاً دَخَلَ ٱلْجَنَّةَ) وقال ﷺ: (مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِٱللهِ شيْئاً حَرَّمَهُ ٱللهُ عَلَى ٱلنَّارِ).

وقد أجمع المسلمون جميعاً عليها إلا ما اختلف فيه، والخلاف بينهم رضى الله عنهم فى أمور جزئية اقتضتها مقاماتهم من العلم بالله تعالى، وكلهم خائفون من الله سبحانه وتعالى، ومراتب الخوف متفاوتة، فالسلف الصالح رضوان الله عليهم خافوا وسلموا علم ما ورد مما يقف العقل دون إدراكه إلى الله تعالى، إجلالاً لكلام الله تعالى الذى هو صفة من صفاته، والخلف خافوا فتأولوا ما ورد للوسعة فى ذلك، إجلالاً للجناب المقدس أن تتصوره العقول، و(إِنَّما الأَعْمَالُ بالنيَّاتِ) وكلهم مؤمنون، بذلوا وسعهم فى خدمة العلم وتقرير الحق والله واسع عليم، وإنى أحب الكل، وأسأل الله تعالى أن يتقبل أعمالهم بقبول حسن وأن يغفر لى ولهم، وأحب أن كل مسلم يتعلم ويعمل، فإذا تعلم وعمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم، وهذه هى العقيدة.

المبحث الثانى

تقديس الله تعالى

أشرح فى هذا الموضوع ما يجب على كل مسلم أن يعلمه علم يقين مما لا يسع جهله، حتى يستحضر الجناب المقدس العلى بنوع ما من الكمال الإلهى الذى يمكن للنفس الإنسانية الكاملة أن تكاشف به، فإن جهل تلك المعانى من هذا العلم نقص للإيمان أو محو له نعوذ بالله تعالى، ولما كان ما أحب أن أشرحه تحت هذا العنوان قد اعتنى أئمة هذا العلم ببعض صفات منها لحكمة لا تخفى على مسلم، اقتديت بهم رضى الله عنهم فى أن أخص تلك الصفات بالذكر، وأعرف كل صفة منها، وأقيم الدليل بآى القرآن، ثم أسرد جميع معانى التنزيه عقب ذلك.

والصفات التى اعتنى بها الأئمة فى مقام التنزيه هى: الوجود والقدم والبقاء ومخالفته تعالى للحوادث، وقيامه تعالى بنفسه، والوحدانية.

١ الوجود

الوجود هو التحقق والثبوت، ولما كان علم التوحيد ومعرفة صفات الله تعالى لا يمكن أن يشهد إلا بعيون الإيمان، حتى تنكشف أسرار جلية بعد الإيمان للقلوب فتطمئن بذكر الله، لأن الاعتراف بوجود الله سبحانه وتعالى أمر بديهى، تجلت حقيقته للعقل بما ظهر من الآيات البديعة فى الآثار الجلية الناطقة بلسان حالها ومآلها أن قادراً بديعاً حكيماً واجب الوجود لذاته أبدعها من العدم، ودبرها بحكمة وقدرة، وأنشأها إنشاء.

فإن العقل إذا شهد سر ارتباط مراتب الوجود بعضها ببعض، واستعداد كل مرتبة لنفع خاص، وتأهل كل مرتبة لإظهار ما خصها الله تعالى به من الخصوصيات التى هى خاصة بها دون غيرها، لا يشرك معها غيرها فيها من أصغر ذرة فى الوجود إلى ما فوق العرش العظيم،

قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ الملك ١-٤، فكل العالم بأجمعه دلائل قاطعة على وجود صانع قادر حكيم، لا يجهل ذلك ذرات الثرى، ولا ما وراء العرش العظيم من الكروبيين وعوالم عالين، فإن كل مرتبة من مراتب الوجود ناطقة بحالها ومآلها بإثبات وجود الواحد المصور البديع الخلاق الرزاق سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ الزمر ٣٨، فالتكلم فى صفة الوجود ينبغى أن يكون بطريق تستنير به القلوب، وتزكو به النفوس وتتروح به الأرواح.

وما نهج عليه علماء الكلام من البدع التى ابتدعوها والشبه التى فتحوا أبوابها على المسلمين لم يكن من الحكمة التى سجد العقل لأول نظرة نظرها فى هذا الكون البديع، معترفاً أن له محدثاً أحدثه، وموجوداً أوجده، وحكيماً دبره، وقادراً أبرزه، وإنما بحث العقل عما يجب أن يكون لهذا الموجد واجب الوجود من الكمالات والجمالات والجلالات، وما الذى يقرب إليه من العبادات والمعاملات، وما الذى ينال به المسلم رضوان الله الأكبر من الأخلاق.

أما البحث فى أن الوجود عين الموجود أو غير الموجود، أو أن له صفة لها وجود أو صفة اعتبارية وما يلزم على ذلك، مما أوجب العداوة والبغضاء بين أهل المذاهب والآراء، والتفريق بين جماعة المسلمين، حتى صار يذم بعضهم بعضاً ويكفر بعضهم بعضاً، فكل ذلك من البدع فى الدين.

وهل بعد أن سجد العقل معترفاً بوجود واجب الوجود نأتى فنبتدع تلك البدع التى جعلت المسلمين شيعاً وأحزاباً؟! هل بعد أن خلق الإنسان، وقبل إبرازه فى الكون أهل الكون له، من شمس مشرقة بالنور والحرارة، وهواء مناسب لصحته وماء نافع له، وأرض تنبت له النباتات، وحيوانات تعينه وتغذيه بألبانها ولحومها، يرجع الإنسان فيشك فى وجود هذا الصانع؟! أو يفتح أبواب البدع فيقول: وجوده عين ذاته أو غير ذاته!

ما لأصول التوحيد وللخوض فى مثل هذه البدع!

ولو أنك سألت الإنسان الذى لا دين له، الذى تربى فوق شاهق جبل مع الأنعام الراتعة وقلت له: من الذى خلق السماوات والأرض وخلقك؟ لقال: موجود قادر حكيم، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير. ولو سألت عابد الصنم: من الذى خلقك وخلق الصنم؟ لقال: الله. ولو قلت له: لم تعبد الصنم ؟! لقال لك: ليقربنى إلى الله.

فوجود الله لا شك فيه عند كل طبقة من طبقات الناس، والله تعالى ليس كمثله شئ فى ذاته ولا فى أفعاله، فكيف يمثله شئ وهو ليس كمثله شئ؟ تلك أنوار لا تشهدها إلا عيون الإيمان، ولا تكاشف بأنوارها إلا عيون الإحسان واليقين، وإنما العقل يعترف بواجب الوجود لما ظهر له من آياته وبيناته.

معنى صفة الوجود

إذا تقرر ذلك، فما علينا إلا أن نبين معنى صفة الوجود بما بينه الله لنا فى كتابه العزيز، فقد ذكر الله تعالى من الآيات الدالة على وجوده وعظيم قدرته وبدائع صنعه ما فيه عبرة لمعتبر، وحُجة قاطعة لمن أراد التقرب إليه سبحانه بمعرفة وجوده، فقال جلت قدرته: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ۝٢٢ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٢٣ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٤ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ الروم ٢٠-٢٥.

وقال تعالى فى بدائع جوده وعلامات وجوده سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فصلت ٥٣، وقال أيضاً فى الآيات الدالة على وجوده جل وعلا: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ

أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ
فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ
أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾
أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا
تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا
تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ الواقعة ٥٧-٧٤ .

وقال أيضاً فى الآيات الدالة على وجوده سبحانه: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الذاريات ٢٠-٢١، وقال سبحانه حاثاً على التفكير فى مصنوعاته حتى يستدل بها على وجوده تعالى ومعرفة ذاته العلية: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ الروم ٨، وقال أيضاً فى العلامات الدالة على وجوده: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ البقرة ١٦٤.

وقال تعالى فى بيان طريق النظر الموصل إلى معرفته سبحانه ووجوده: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى
ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ
سُطِحَتْ﴾ الغاشية ١٧-٢٠، وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ
ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ الطارق ٥-٧، وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾
أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾
وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ عبس ٢٤-٣٢ .

هذه الآيات البينات المحكمات، والبراهين الناصعة الجلية، لم يحتج إنسان حفظه الله من المسخ بعدها إلى بحث وتنقيب لطمأنينة قلبه، ولكن من مسخهم الله فجعل منهم القردة والخنازير وعبدة الطاغوت وأضلهم وأعمى أبصارهم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الأعراف ١٧٩، لم تتجل لهم أنوار تلك البراهين القدسية والدلائل الربانية، تجلياً تطمئن به قلوبهم، فمالوا عن الإسلام بعقول مكسوفة بالهوى واتباع آبائهم، ولو أنهم صدقوا الله تعالى ورسوله ﷺ لكان خيراً لهم، والله غفور رحيم.

الإيمان سابق العلم

قد سبق لنا أننا بَيَنا الفرق بين العلم والإيمان فى كتاب "معارج المقربين" وقررنا أن الإيمان سابق العلم، وأنه لا علم بعد الشك فى خبر الصادق، وكيف يكون ذلك وقد سجد العقل للآيات التى أعجزته حتى تحقق صدقه ﷺ؟! فلو أن الإنسان صدق الله تعالى ورسوله ﷺ لانشرح صدره، وتجلت له براهين الصفات ودلائل معانيها بالقرآن الشريف كما تتجلى الشمس فى السماء الصافية، وكان طريق الصحابة رضوان الله عنهم أن يتعلموا الإيمان قبل القرآن، كما قال سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه: كنا نتعلم الإيمان قبل القرآن.

ومعنى ذلك أنهم كانوا يتعلمون كيف يصدقون الله ورسوله تصديقاً يجملهم الله به بالعلم اليقينى، علم البيان والبرهان بأدلة القرآن وآياته البرهانية، التى هى عين اليقين لأهل الإحسان، وحق يقين لأهل الإيقان، أسال الله تعالى أن يتفضل علينا بالإيمان الذى يشرح صدورنا لفهم القرآن.

وليس وراء تلك البراهين العلية ما تطمئن به القلوب، وتسكن به النفوس إلى منفسها سبحانه، وهل بعد الحق إلا الضلال، حفظنى الله وإخوتى المؤمنين من البدع المضلة والأهواء المضلة، ومن الالتفات عن كتاب الله تعالى الذى ورد من الله، وعن سُنة رسول الله ﷺ التى هى الأمن فى الدنيا والآخرة .

هذا كله لا يجعل حياً يظن أنى أكره له تعليم العلوم الرياضية، التى ترتاض بها النفس، وتتأهل للنظر فى الكائنات نظر عبرة وفكرة، فإن تلك العلوم كلها طريق إلى مشاهدة آيات الله المنبلجة فى الكائنات، لا طريق إلى تصور الجناب المقدس بصورة ما والحكم عليه بما

تقتضيه تلك الصورة، تنزه ربنا وتعالى علواً كبيراً عما يصفه الواصفون، وأشكر الله تعالى على ما مَنَّ به من النور، وما تفضل به من الهدى، وأسأله سبحانه وتعالى أن يشرح صدرى وييسر أمرى ويحلل عقدة لسانى يفقهوا قولى. وهذه الآيات التى أوردناها فى مختصرنا هذا نور مبين لذى بصر يبصر وسمع يسمع وقلب يفقه، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ الأنعام ٢١، رزقنا الله الهداية والنور، إنه مجيب الدعاء.

٢ القِدَم

القِدم هو نفى سبق العدم على الوجود، وبعبارة أخرى، هو نفى الأولية للوجود، أو هو عدم الأولية، قال الله تعالى فى ثبوت تلك الصفة لنفسه سبحانه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ الحديد ٣، لم تكن تلك الصفة من الصفات التوقيفية وإن كانت وردت فى بعض الأحاديث بطرق حسنة، وإطلاقها على الله سبحانه وتعالى من جهة مدلولها الذى بيناه لا حظر عليه عند العلماء، وقد أشرقت أنوارها جلية لقوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٍ﴾ الرحمن ٢٩، فمُنشئ الشؤون سبحانه لم يشأ أن يجعلها شؤوناً تتغير وتتحول إلا ليقيم الحُجة على العقول أنه أزلى أبدى، لا افتتاح لأوليته ولا بداية لأزليته، حتى سجد العقل بعد إشراق أنوار البرهان على أزليته سبحانه وتعالى، واعتقد أن كل محدث كائن بقدرة قادر وحكمة حكيم مشهود محسوس، وكل مستنبط من الغيب معقول محسوس، وأن واجب الوجود وحده هو الأزلى الصمد الواحد الأحد، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ ق ١٥، ومن نظر بعين الإيمان إلى هذا الخلق الجديد لم يحصل له لبس، ولكنه يحصل له اليقين الحق أنه ممكن مُحدَث، وأن مُحدِثهُ واجب الوجود أزلى لا افتتاح لأوليته، قديم لا افتتاح لأزليته.

ومن تعلم الإيمان قبل القرآن كانت آيات القرآن برداً وسلاماً عليه، ومعراجاً لوصوله إلى حضرة القدس الأعلى. ومن تعلم القرآن قبل الإيمان اعتورته الشكوك والريب ونهج مناهج البدع، وحكم بعقله المكسوف على من ليس كمثله شئ، ونظر بعيون رمداء وآذان صماء وقلوب مقفلة إلى تلك الآيات المنبلجة أنوارها المشرقة أسرارها، قال الله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ

ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ العنكبوت ٤٣، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ البقرة ١٦٤.

٣ البقاء

البقاء هو صفة سلبية معبر بها عن سلب معنى لا يليق به تعالى، وهو عدم الآخرية. وبعبارة أخرى فهو نفى لحوق العدم للوجود. أو هو نفى الآخرية. قال الله تعالى فى بيان أنه باقٍ لا آخر له سبحانه أبدى لا نهاية له: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ القصص ٨٨، وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ الرحمن ٢٦-٢٧، تلك المعانى التى يعبر عنها بالصفات السلبية لا يشك فى إثباتها للجناب المقدس شاك مهما كان، ولو أنه من غير بنى الإنسان، فالبهيم الأعجم لو أننا أمكنا أن نفهم منه ويفهم منا، وسألناه عن إثبات تلك الصفات الكمالية لله تعالى، لأجابنا: هذا أمر بديهى، لا يسأل عنه حى يرزق، يحتاج فى كل نفس إلى معونة من مبدع الكون ومن بيده الإيجاد والإمداد سبحانه وتعالى.

ومن اعتور قلبه الشك والريب فأظلم أفق قلبه عن مكاشفة تلك الآيات الجلية، والأنوار الساطعة والأسرار المجلوة، لا يقع به العلم على عين اليقين، بل يهوى به الوهم فى مكان سحيق، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل لنا نوراً نمشى به فى الناس، نشهد به آياته فى الآفاق وفى أنفسناً حتى يتبين لنا أنه الحق، إنه مجيب الدعاء.

٤ مخالفته تعالى للحوادث

هى نفى المماثلة لها فى الذات والصفات والأفعال، فلا يماثله تعالى شئ منها مطلقاً، وبعبارة أخرى أنه تعالى لا يماثل موجوداً ولا يماثله موجود، ليس كمثله شئ ولا هو مثل شئ، قال تعالى منزهاً جنابه العلى عن الشبيه والمثيل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ

وَلَمۡ يُولَدۡ ۝ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ الأخلاص ١-٤، وقال تعالى أيضاً فى نفى المثلية وتنزيهه سبحانه عن الشبيه والمثيل: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ الشورى ١١، وقال تعالى فى نفى صفات الحوادث عنه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ البقرة ٢٥٥، وقال الله تعالى فى نفى المماثل وتنزيهه عن الصحابة والولد: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۝ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ مريم ٨٨-٩٥، وقال تعالى فى تنزيهه عن الخطأ والنسيان مما هو شأن الحوادث: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ طه ٤٨-٥٢، وقال فى بيان أنه سبحانه مستغن عن كل من سواه وأن كل ما سواه مفتقر إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ فاطر ١٥، كل تلك الآيات القرآنية برهانية للمؤهل لفهم البرهان وإقامة البرهان.

حقيقة بديهية

إليك حقيقة من الحقائق بديهية: مبدع قوى حكيم أعجز العقول عن أن تحيط علماً بخواص ما أبدعه من الكائنات، فضلاً عن نسبة ارتباط كل مرتبة من مراتب الوجود وأخرى، وفضلاً عن مكاشفة أسرار الحكمة المنبلجة فيها من كيفية رفع السماء بلا عمد ترونها، وانتشار الكواكب فى هذا الجو الفسيح من غير أن يختل نظامها، أو تنحرف عن مدارها، أو تختلف نسبتها، وكيفية خلق الإبل وما بث على الأرض من دابة، وكيفية إنبات النبات وتصريف الرياح وتسخير السحاب وجرى الأنهار، فضلاً عن الآيات المنبلجة فى غضون تلك الكيفيات، مما يشهد سر سريان القدرة والحكمة فى كل كائن من الكائنات، فضلاً عن معانى التجليات التى هى كمالات مقتضى الأسماء والصفات، فضلاً عن أنوار الأسماء والصفات عن تعليق الأسماء والصفات بالذات، فضلاً عن كمالات الذات الأحدية،

فإذا عجز العقل عن الخصوصيات المسخرة له فى الكائنات لنيل كمالاته، ومما يتنعم به فى دنياه وينتفع به فى حياته، فكيف يدرك العقل كمالات الذات؟! أو يحكم أن لها نظيراً أو مثيلاً تمثل به أو تشبه به؟! تنزهت وتعالت علواً كبيراً.

وكل حى من بنى الإنسان ولو كان ناقص العقل لا يشك فى أن ممد الكون بالإيجاد والإمداد لا يماثل شيئاً منه أو يشبهه، تعالى الله علواً كبيراً، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ الزمر ٦٧، أساله سبحانه وتعالى أن يواجهنا بأنواره مواجهة تسكن بها نفوسنا إلى جنابه العلى، وتطمئن بها قلوبنا بذكره، ويعيننا به سبحانه حتى نكون من الذاكرين الفاكرين الحاضرين فى معيته سبحانه وتعالى، حتى لا نتيه فى مهاوى الأهواء والضلال وتحجبنا الأوهام عن الآيات الجلية، إنه مجيب الدعاء.

٥ قيامه تعالى بنفسه

معناه سلب افتقاره إلى شئ من الأشياء تنزه وتعالى، فلا يفتقر سبحانه إلى ذات سوى ذاته، يوجد فيها كما توجد الصفة فى الموصوف، وهو الغنى عن كل من سواه، المفنى لكل من عداه، والله تنزهت ذاته وتقدست صفاته، ذات موصوفة بجميع صفات الكمال والجمال والجلال، وليس جل وعز صفة تحتاج فى ظهورها إلى القيام بالغير، كما زعم النصارى الذين قادهم الشيطان، فقالوا: إن الله مركب من ثلاثة أقانيم، أقنوم الوجود ويعبرون عنه بالأب، وأقنوم العلم ويعبرون عنه بالابن، وأقنوم الحياة ويعبرون عنه بروح القدس ويعنون بالأقنوم الصفة، والصفة لا تقوم بنفسها، ويقولون: إن أقنوم العلم الذى هو جزء الإله انتقل لجسد سيدنا عيسى عليه السلام وامتزج به فاتحد اللاهوت بالناسوت. وما أبلد هؤلاء حيث ادعوا أن العلم إله والوجود إله والحياة إله، ثم صار مجموع الأقانيم الثلاثة إلهاً واحداً!

وهنا يحسن بى أن أذكر ما ورد بعد أن رفع سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء: خاف أصحابه من اليهود فاختفوا منهم، فجاءهم إبليس لعنة الله عليه فقال لهم: ماذا تقولون فى المسيح؟ فقالوا: نقول عنه: إنه رسول الله أرسله الله يبين لنا ما اختلفنا فيه، ويهدينا الله به إلى الحق،

فقال الشيطان لعنة الله عليه: إنى سائلكم فأجيبونى، فقالوا: من أنت؟ فقال: إنى رجل آمنت بالمسيح وصدقت به فقال لهم: الذى خلق آدم من الطين ماذا يكون؟ قالوا: إلهاً، قال: والذى يجعل الأكمه بصيراً ماذا يكون؟ قالوا: إلهاً، قال: والذى يحى ويميت ماذا يكون؟ قالوا: إلهاً، قال: والذى يشفى من الأمراض ماذا يكون؟ قالوا: إلهاً، قال: فالمسيح فعل كل ذلك فهو إله.

فصدقه أكثرهم، وكان الحزن على المسيح والشوق إليه شديدين، وانزعج بعضهم لما يعلمه من اعتراف المسيح بأنه عبد، ومن تنزيهه للجناب العلى.

فخشى إبليس لعنه الله أن يتأثروا بمن أنكر منهم فيخيب فى سعيه، فقال لمن انزعجوا: ماذا تقولون فى المسيح؟ هل الإنسان الذى خلق من الطين طيراً ونفخ فيه فصار حياً يمكنه أن يفعل ذلك بإنسانيته؟ ولم يفعل ذلك إلا الإله سبحانه الذى خلق آدم من الطين ونفخ فيه، فماذا تقولون أنتم فى المسيح؟ أنا أقول: إن المسيح حل فيه الإله، فصدقه بعض المنزعجين وقالوا: حل فيه الإله.

وأنكر رجل منهم كان مؤمناً فقال له إبليس: هذه الأعمال لا يعملها إلا الإله، والمسيح لا أب له، إذاً فأبوه الله.

فأضلهم لعنة الله عليه، فصار بعضهم يقول: هو الإله، وبعضهم يقول: حل فيه الإله، وبعضهم يقول: هو ابن الله.

وتنزه مبدع الكون الذى وسع كرسيه السماوات والأرض، أن يحيط بعظمته وكبريائه وجلاله عرش أو كرسى، فضلاً عن جسد إنسان يحيط به الثوب من المنسوج القطنى.

ولو أن الإنسان نظر نظرة بعقل صحيح من أمراض التقليد والتعصب للآباء لوقع به العلم على عين اليقين، واهتدى إلى تنزيه الحق سبحانه وتعالى عن أن يجعل له نظيراً أو مثيلاً أو والداً أو ولداً، تعالى الله علواً كبيراً، ولانجلت له الحقيقة بأجلى مظاهرها وتحقق أن الجناب المقدس غنى بذاته عن الاحتياج إلى المكان والزمان المخصص، قائم بذاته سبحانه

وتعالى قياماً لا يعلمه غيره سبحانه، من لا يعلم قدره غيره، ولا يبلغ الواصفون صفته.

اللهم إنى أشهدك أنى آمنت بالصفات كما وردت، وكما وضحتها فى كتابك سبحانك، وبينها حبيبك ورسولك ﷺ، اللهم إنى أسألك أن تحفظنى من الشرك الخفى، ومن كل ضلال وغى، إنك مجيب الدعاء.

٦ الوحدانية

هى نفى الكمية المتصلة والمنفصلة، ونفى الشريك فى الأفعال عموماً، أو بعبارة أخرى: هى عدم التعدد فى الذات والصفات والأفعال، فالله سبحانه وتعالى واحد فى ذاته، واحد فى صفاته، واحد فى أفعاله، قال الله تعالى مشيراً إلى تفرده سبحانه فى الذات وعدم الشريك والمعين له سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ الأنبياء٢٢ .

وقال تعالى فى بيان وحدانيته وتفرده سبحانه بالإيجاد مستدلاً على ذلك بمصنوعاته ومخلوقاته: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ النمل٦٠-٦٤.

وقال تعالى فى بيان وحدانيته تعالى فى الذات والصفات والأفعال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ الفرقان ١-٣.

وقال جل ثناؤه فى بيان وحدانيته وصمدانيته تعالى ونفى كونه والداً أو مولوداً وتنزيهه عن المكافئ والماثل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ الأخلاص ١-٤،

وقال جل وعلا فى نفى اتخاذه الولد والشريك وإقامة الدليل على ذلك: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ المؤمنون ٩١، وقال جل شأنه رداً على بطلان دعوى من يقول بوجود آلهة غير الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ الإسراء٤٢-٤٣، وقال تعالى فى عدم فلاح من أشرك مع الله تعالى غيره فى العبادة: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المؤمنون ١١٧.

هذه الدلائل نور مشرق يمحق ظلمات الأوهام، وظلال الخيال الحاجبة عن مشاهد غيب الوحدانية عن القلوب المطمئنة بذكر الله تعالى، والنفوس الساكنة إلى الله تعالى، ونار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة فتحرق رجس الشرك الخفى ورجز الشكوك والريب، حتى تستعد النفوس للفلاح والفوز بمشاهدة أنوار وحدة واجب الوجود سبحانه، ومشاهدة أسرار حقيقته فى الذات والصفات والأفعال، حتى يتجمل العبد بحق يقين أهل لا حول ولا قوة إلا بالله، ويكون من أهل عين يقين من شهدوا ملكوت ربهم فى السماوات والأرض، بقدر ما تفضل الله به على المسلمين من سر قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ الحج ٧٨ ونور قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ الأنعام ٧٥، وليست الحيرة فى دلائل الوحدانية لأنها جلية ناصعة بينة، وإنما حيرة المؤمن ودهشته فى غرائب كمالات القدرة، وعجائب جمالات الحكمة، ومعانى صفات الربوبية.

التوحيد هو رأس المال

رأس المال فى الحقيقة إنما هو التوحيد، ومن لم يستنر قلبه بنور التوحيد حقاً؛ ويتطهر من كل شوائب الشك والريب، والحكم على الحق بما تقتضيه أحوال الخلق؛ كان قلبه خرباً من أنوار التوحيد مؤهلاً لنفثات الشيطان الرجيم، ومتى أشرقت شمس التوحيد فى أفق لطائف القلب، شهدت عين القلب أسرار ما فى السماوات والأرض، وشهدت ملكوت الرب سبحانه، وحكمة النبوات، وشهدت سر فضل القضاء، والجنة والنار، قال الله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ

﴿ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ الزمر ٦٩، وقال سبحانه: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ التكاثر ٥٧.

كل تلك المشاهد العلية والمكاشفات الملكوتية نتيجة من نتائج نور التوحيد المشرق على القلب، وآية من آيات التنزيه المبينة لسبل الله تعالى، ومتى تجمل القلب بنور التوحيد أشرقت أنوار الحكمة والمعرفة على الجوارح المجترحة والأعضاء العاملة، فنطق اللسان بالحكمة العالية، وشهدت عيون الرؤوس الآيات المنبلجة فى الآثار، وصغت أذنا الرأس إلى نغمات تسبيح الأكوان، وشم الأنف شذا عبير نسيم الآيات، وبُسِطت اليدان بالعمل فى طاعة الله، وثبتت القدمان فى مواطن البأس، إحياء لكلمة الله سبحانه وتجديد سُنة رسول الله ﷺ، وحفظت البطن من أن يصل إليها ما حرم الله تعالى، وحفظ الفرج من معصية الله، فكان نور التوحيد فى القلب حصناً حصيناً من الوقوع فى معصيته، وتلقى القلب بنور التوحيد عن الله ما به يكون هَادياً مَهْدِياً راضياً مَرْضِياً.

هذه بعض نتائج التوحيد عن عين اليقين، فإذا بلغ التوحيد حق اليقين لا تفى العبارة بشرح حالة المتحقق بهذا المقام، وكيف تفى العبارة ببيان أحوال من رفع الله قدرهم، وقربهم منه سبحانه قرباً حتى طوى سره عن العقول؟! قال تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءُۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ السجدة ١٧.

ذنوب من كمل التوحيد فى قلوبهم

ولا تجد مسلماً كمل التوحيد فى قلبه يعمل صغائر الذنوب فضلاً عن كبائرها وإن وقعت منهم الذنوب فإنما تحصل منهم لا لأنها ذنوب قاموا بها مخالفة للحق، وإنما تحصل منهم لتأويل تأولوه اجتهاداً منهم معتقدين أن عملهم هذا هو الحق، فيقعون فى المعصية من حيث لا يعلمون أنها معصية، فإذا تذكروا أبصروا خطأهم فتابوا إلى الله وأنابوا إليه مسلمين، فقبل الله توبتهم، وإلا فهم ليسوا بمعصومين من الخطايا، ومن هنا تفهم سر معصية أبينا آدم عليه السلام، فإنه ما ارتكب المعصية إلا متأولاً مجتهداً فغفر الله له وقَبِله، ولكن معصية إبليس كانت عن قصد، والمؤمن لا يقع فى معصية الله إلا متأولاً أو فاقداً الإدراك، لأن كمال التوحيد يقتضى

شهود الحق سبحانه، قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ المجادلة ٧، فالتصديق بهذه الآية الشريفة يؤدى إلى العلم بأسرارها، والعلم بأسرارها يؤدى إلى مشاهدة أنوارها، ومشاهدة أنوارها حصن الله وحفظه لعبده، قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأنعام٨٢.

ميزان التوحيد

إنما يوزن الرجال بميزان التوحيد، فمن رأيته متساهلاً فى دينه فاعلم أنه لم يبلغ من التوحيد درجة يحفظه الله بها، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ العنكبوت ٢، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ محمد ٣١، هذا ما يمكن أن يسطر فى مثل هذا المختصر ترويحاً لأرواح الواصلين، وريحاناً لنفوس السالكين، وزجراً لأهل الغواية المدعين، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمنحنا اليقين حتى نكون على كمال التوحيد والتنزيه والتجريد، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تقديس الجناب المقدس عما لا يليق به سبحانه

الله جل جلاله وتقدست ذاته وصفاته وأسماؤه، واحد لا شريك له، فرد لا مثل له، صمد لا ضد له، متوحد لا نِدَ له، وأنه قديم لا أول له، أزلى لا بداية له، مستمر الوجود لا آخر له، أبدى لا نهاية له، قيوم لا انقطاع له، دائم لا انصرام له، لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال، لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآماد وانقراض الآجال، بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم، وأنه تعالى ليس بجسم مصور، ولا جوهر محدود مقدر، وأنه لا يماثل الأجسام لا فى التقدير ولا فى قبول الانقسام، وأنه تعالى ليس بجوهر ولا تحله الجواهر، ولا بعرض ولا تحله الأعراض، بل لا يماثل موجوداً، ولا يماثله موجود، وليس كمثله شئ ولا هو مثل شئ.

وأنه تعالى لا يحده المقدار، ولا تحويه الأقطار، ولا تحيط به الجهات، ولا تكتنفه

السماوات، وأنه مستوٍ على العرش على الوجه الذى قاله، وبالمعنى الذى أراده، استواء منزهاً عن المماسة والاستقرار والتمكن والتحول والانتقال، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون فى قبضته، وهو فوق العرش وفوق كل شئ إلى تخوم الثرى، فوقية لا تزيده قرباً إلى العرش والسماء، بل هو رفيع الدرجات على العرش كما أنه رفيع الدرجات على الثرى، وهو مع ذلك قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد، وهو على كل شئ شهيد، إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام.

وأنه تعالى لا يحل فى شئ، ولا يحل فيه شئ، تعالى عن أن يحويه مكان، كما تقدس عن أن يحده زمان، بل كان قبل أن خُلِقَ الزمان والمكان، وهو الآن على ما عليه كان، وأنه تعالى بائن بصفاته من خلقه، ليس فى ذاته سواه، ولا فى سواه شئ من ذاته. وأنه تعالى مقدس عن التغيير والانتقال، لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض، بل لا يزال فى نعوت جلاله منزهاً عن الزوال. وأنه تعالى فى ذاته معلوم الوجود بالعقول، مرئى بالأبصار نعمة منه ولطفاً بالأبرار فى دار القرار، وإتماماً للنعيم بالنظر إلى الوجه الكريم.

هذا ما يمكن أن يسطر على صفحات الأوراق مما يقرب للعقول فهمه، وتطمئن به القلوب، وترتاح له النفوس، وما وراء ذلك من شهود عين اليقين ومكاشفات حق اليقين لا تفى به عبارات أهل التعبير، ولا إشارات أولياء الله المقربين، لأنه من غوامض أسرار عجائب القدرة وغرائب الحكمة، وغيب كمالات الذات الأحدية، وجمالات صفاتها العلية، وجلال أسمائها المقدسة الصمدية.

ومن سبقت له الحسنى من الله تعالى لحظته عين العناية فعمل بما علم، فإذا عمل بما علم ورثه الله من غوامض تلك الأسرار علم ما لم يعلم، قال سيدنا أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام: (إنّ فى صدرِى هذا لَعُلوماً لو أبحتُ بها لقُطع مِنّى هذا الحلقوم) وقال سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه: (ملأتُ من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم جرابين بثثتُ فيكم أحدَهما ولو بثثتُ الآخرَ لقطعتُم ما بين كتفى) وأسرار الغيب المصون حظر أن تباح إلا للأرواح، أو تكشف إلا لمن زكت نفسه، قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ الشمس٧-٩.

أهل الملكوت

والمريد المخلص الصادق إذا تجمل بمعانى ما وضحت، وصدق الله ورسوله والأسرار التى بينت، كان مؤهلاً لشهود الأنوار التى لا تتجلى فى المُلك لمن وقفوا عنده، ولكنها تلوح لأهل الملكوت وأهل الملكوت قليلون، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ الأنعام ٧٥، وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ العنكبوت ٦٩، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ البقرة ٢٥٧، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الأحزاب ٤٣، فمن سبقت له الحسنى بفضل الله تعالى أخرجه الله سبحانه من كون الفساد أو الظلمة إلى فسيح الملكوت الأعلى، فشهد من عجائب القدرة وغرائب الحكمة ما ينجذب به قلبه إلى حضرة القدس الأعلى، ويفر إلى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ الذاريات ٥٠.

ومن قصر به العزم عن أن يذوق حلاوة العقيدة كما وضحت، وحجبت عنه الأسرار، ورأى غيره قد مَنَ الله سبحانه عليه بمشاهد تلك الأنوار حتى تبين له الحق، فعليه أن يجاهد نفسه فى ذات الله تعالى حتى يكاشف بأسرار هذا الكون من أنوار المُكَون سبحانه، ولأهل هذا المشهد علامات جمعها الله فى كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ البقرة ١١٥، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الأنفال ٢-٤.

وقد بينت جملاً فى الطريقة المستقيمة ووضحت ما ينبغى أن يكون السالك عليه الراغب فى نوال فضل الله الأكبر فى كتاب "معارج المقربين"، وألمعت فيه إلى تزكية النفوس ومعرفة أمراضها، وطريق إعادة الصحة لها وحفظها عليها، فمن مالت نفسه أن يكون من أهل هذا المشهد العلى فليتعلم، وليجاهد نفسه عاملاً بسُنة رسول الله ﷺ، قال ﷺ: (مَنْ عَملَ بمَا عَلمَ وَرّثَه اُللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلمْ) والله سبحانه أسأل أن يجعل لنا نوراً نمشى به فى الناس يستبين لنا به الحق إنه مجيب الدعاء.

صفات المعانى السبعة

هى القدرة والحياة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام.

١ القدرة

القدرة هى صفة قديمة يوجد الله بها ما يشاء أن يوجده، ويعدم بها ما يشاء أن يعدمه وفق إرادته، قال تعالى فى بيان آثار قدرته تعالى فى مخلوقاته: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ ق ٦-١١، وقال جل وعلا فى إثبات كمال قدرته تعالى وعجز ما سواه وأنه مستحق للعبادة دون سواه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ الحج ٧٣-٧٤، وقال جلت قدرته فى بيان كمال قدرته بما أودعه فى عالم المخلوقات من أرض وسماوات وأحياء ونبات وفلك وأفلاك وليل ونهار ورياح وسحاب من العبر والآيات: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ البقرة ١٦٤، وقال تعالى فى بيان كمال قدرته وتمام عظمته: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ الأنعام ٦٥.

وقال جل شأنه فى بيان كمال قدرته وعجز من سواه وفيه الرد على منكرى البعث: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ الأحقاف ٣٣، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّٰتٍ

أَلْفَافًا﴾ النبأ٦-١٦، وقال تعالى فى بيان كمال قدرته وخلقه الإنسان من الماء: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ الفرقان ٤٥، وقال تعالى فى بيان قدرته وأنه إذا أراد فعل أى شئ لا يمكن غيره أن يعارضه أو يمانعه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الأنعام١٧-١٨.

هذه الآيات نور مشرق على قلوب جملها الله بعيون البصيرة شهدت عجائب القدرة وغرائب تصريفها فى الكائنات، فاستبان به للبصائر غيب القدرة، فانجذب العبد المتجمل بعيون البصيرة إلى جناب القدس الأعلى فاراً من جانبه، وتحقق كمال اضراره واحتياجه إلى القادر سبحانه وتعالى، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، تحققاً جعله عدماً فى عين نفسه، موجوداً بقادر حكيم، وأن الكون وما فيه سر من أسرار قدرة الله تعالى، وفيض عميم من فضل قدرته تنزه وتعالى.

شهد المؤمن من تلك الآيات العلية التى رفعت له الستارة عما انطوى فى هذا الكون الفسيح من أسرار الرب الفريد، فتحقق كمال التحقيق بوحدانية الله ذاتاً وصفة وفعلاً، وقد تشرق عليه من وراء حجب الكائنات أنوار سريان القدرة، حتى قد يقوى هذا النور فيجعله لا يشهد شيئاً من الموجدات إلا ويذوق حلاوة الإيمان بوحدانية الله ذاتاً وصفة وفعلاً، وقد يقوى هذا النور فتنبعث أشعته على الكائنات فتحجب الكون وما فيه عن عين المشاهد، فلا يرى إلا قدرة قادر مريد، فيغيب عن نفسه وحسه وعن كونه، وهو المجذوب إلى حضرة القدس بسابقية الحسنى، وهو الناقص فى عين العارف لغيبته عن شهود الحكمة وتدبيرها، حتى إذا أشرقت عليه أنوار الحكمة أثبت ما أثبت الحق فشهد المرتبتين بنور اليقين، رتبة ممكن الوجود من الكون وما فيه، ورتبة واجب الوجود سبحانه، فيكمل كمالاً يجعله عبداً صرفاً لا يغيب عن معية الله تعالى، ولا يغيب الله سبحانه عنه، فلا تقوى أنوار القدس عليه فتحجب الخلق عن عين رأسه، ولا الكائنات المحسوسة فتحجب أنوار الحق عن عين بصيرته، وهو الفرد الكامل المشاهد للحضرتين بالحضرتين.

❊ ❊ ❊

فوق الأنوار أسرار

ووراء تلك الأنوار أنوار، وفوق تلك الأنوار أسرار لا ينبغى للعارف أن يسطرها فى الأوراق، وفيما أشرنا إليه كفاية لأولى الألباب، وإنما هى غوامض أسرار القدرة، وخفى غرائب الحكمة لا تشهد بعين البصيرة، ولا تكاشف بعيون السريرة، وإنما هى أنوار تواجه الروح القدسية التى هى نفخة الرحمن، قال ﷺ: (كُنْ مَعَ ٱللهِ ترَ اللهَ مَعَك). وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ النحل ١٢٨، وليست تلك الأسرار وإن خفيت والأنوار وإن غمضت بشئ يذكر فى جانب ما وراء ذلك من أنوار الكمالات الذاتية، وغيب غوامض مجلى الذات الأحدية ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ البقرة ١٠٥، ومن حرم العيون التى تشهد آيات القدرة فى الكائنات فهو بهيم وأضل، يتمنى يوم القيامة أن يكون تراباً، أعوذ بالله من العمى فى هذه الدار الدنيا، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الإسراء ٧٢، أسأله سبحانه أن يجعل لنا نوراً نمشى به فى الناس إنه مجيب الدعاء، وأن يهدينا الله وإياك يا أخى صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

٢ الحياة

الحياة هى صفة قديمة ذاتية لله عز وجل، قال تعالى فى إثبات صفة الحياة له عز وجل: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ غافر ٦٥، وقال تعالى فى إثبات أنه حى لا يموت: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ الفرقان ٥٧.

تفصيل ذلك أنه تعالى حى قادر، جبار قاهر، لا يعتريه قصور ولا عجز، ولا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يعارضه فناء ولا موت، وأنه ذو الملك والملكوت، والعزة والجبروت، له القدرة والسلطان والقهر والخلق والأمر، والسماوات مطويات بيمينه، والخلائق مقهورون فى قبضته، وأنه المنفرد بالخلق والاختراع، المتوحد بالإيجاد والإبداع، خلق الخلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم، لا يشذ عن قبضته مقدور، ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور، لا

تُحصى مقدوراته ولا تنتهى معلوماته.

أنوار تلك الآيات جلية لأن مفيض الحياة على هذا الكون يفيضها فضلاً منه سبحانه وكرماً، لا لحاجة إليها لغناه المطلق سبحانه عن كل من سواه، وافتقار كل من عداه إليه سبحانه، برهان حق على أن مفيض الحياة هو الحى القيوم، وممد هذا الوجود الممكن بالحياة حى أبدى أزلى، إذ حياة كل رتبة من المراتب بقدرها، فالحياة الممكنة مقيدة بالنسبة لما قامت به ومن قامت به، ومفيض الحياة وممد الكائنات حياته ليس كمثلها شئ، وإنما جعلت حياة الكائنات لتشرق أنوار الحى القيوم على القلوب، فتشهد عيون السر أن ممد الكون بالحياة حى حياة لا تتصورها الخيالات، ولا تدركها عيون البصائر، ولا تحيط بكنهها الأرواح الطاهرة الملكية.

وصفات الله سبحانه وتعالى تُعلم لنا بقدر ما نشهد من معناها المتجلى لا بقدر ما هى عليه فى نفس الأمر، إذ ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى، وما على المؤمن الكامل إلا أن يقول: آمنت بمعانى الصفات كما وردت.

وإذا كان كلام الله الذى نتلوه ليلاً ونهاراً لا يعلم تأويله إلا الله سبحانه وقد تعبدنا به سبحانه وتعالى، فكيف يمكن لعيون السريرة وإن أشرقت بكمال التوحيد أو لعيون الروح وإن واجهت وجه العلى الكريم أن تدرك معنى من الصفات، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ آل عمران ٧، وهو كلام متلو مقروء، وقال تعالى مخبراً عن أحبابه المقربين: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ آل عمران ٧.

فاللهم اشهد أنى بحول منك وقوة عقدتُ قلبى على أنك حى أبدى بما أشهدتنى من فيض الحياة التى تفضلت بها علىَّ وعلى كل موجود، وأنى أعتقد حق الاعتقاد أن صفاتك سبحانك لا يعلمها علماً حقيقياً على ما هى عليه فى نفس الأمر إلا أنت سبحانك، وأعوذ بك اللهم من غفلة تجعلنى أبحث بقوة فكرى أو بعيون سرى عن دليل يثبت صفة من صفاتك، بعد أن أثبت ذلك بكلامك المقدس، وأظهرت لعيون السر من آثار قدرتك ومعانى تجليات صفاتك، فأعنّى اللهم على العمل بما علمتنى لينكشف لى علم ما لم أعلم، إنك مجيب الدعاء.

٣ العلم

العلم هو صفة توجب تمييزاً لا يحتمل النقيض، قال تعالى فى إثبات العلم له سبحانه ولو بأخفى الخفيات حتى بما يهجس على خاطر الإنسان وتوسوس به نفسه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ ق ١٦، وقال تعالى فى بيان كمال علمه بدلالة الخلق عليه: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الملك ١٣-١٤، وقال تعالى فى بيان أنه سبحانه عالم بكل شئ فى السماء والأرض حتى الحديث الذى يسره المرء لأخيه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ المجادلة ٧، وقال تعالى فى ذكر أنه سبحانه عالم بالإنسان فى حال كونه جنيناً فى بطن أمه وفى حال نشئته: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ النجم ٣٢.

تفصيل ذلك أن الله سبحانه وتعالى عالم بجميع المعلومات، محيط بما يجرى فى تخوم الأرضيين إلى أعلى السماوات، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء، ويدرك حركة الذر فى جو الهواء، ويعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر، بعلم قديم أزلى لم يزل موصوفاً به فى أزل الآزال، لا بعلم متجدد حاصل فى ذاته بالتحول والانتقال .

أنوار صفة العلم

إذا لاحظت عين العناية الإلهية عبداً فوقعت به عين اليقين على معنى صفة العلم الإلهى؛ وتمثل تلك الصفة المنزهة بمعنى ما من معانيها التى تليق بكمالاتها؛ كان العبد المشاهد تلك المعانى فى معية ربه حاضراً لا يغيب، متجملاً بجمال أهل المراقبة، وكيف لا؟! والمؤمن الذى يعتقد أن الله يعلم السر وأخفى يسارع إلى أن يعمل ما يرضى ربه عنه الذى يعلمه فى كل

حال من أحواله، ويتباعد عن معاصيه وعن مواطن سخطه ومقته لأنه يعلم أنه يعلمه ويراه، ويكره أن يراه ربه سبحانه حيث يكره أن يراه فى مواطن مخالفة أمره ومعصيته كما يكره أن يقذف به فى نار جهنم، وإن جهنم أخف على المؤمن المتمكن من معصية الله تعالى، وكيف لا؟! وهو عند المعصية إذا تحقق بأن الله يراه فيها ويعلم به فيها يشعر بأنه استهان بربه فخالف أمره، وهو يعلم قدر عظمة ربه وقدر موجبات غضبه وسخطه، فالمؤمن يتمنى أن يكون فى نار جهنم ولا يقع فى معصية الله ومخالفة أمره، لأن غضب الله وسخطه أشد عليه من عذاب جهنم، والجاهل بهذا المقام لا يخاف مقام ربه ولكن يخاف عذاب ربه، فقد يقع فى المخالفة لنسيان يوم الحساب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ ص ٢٦، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ الجاثية ٣٤.

فمن كان خوفه من المنتقم القهار الكبير المتعال، كان فى حصون الأمن من الوقوع فى المخالفة، ومن كان خوفه من عذاب النار والحرمان من الملاذ والشهوات قد ينسى لما ينال من ملاذ الدنيا وزهرتها الفانية نعيم الآخرة، فيقع فى المخالفات وينسى العقوبات حتى يلقى فى هوة النار، نعوذ بالله من جهل مقام ربنا ومن نسيان يوم الحساب.

نتج من هذا أن الموقن بصفة العلم لله القادر، المتحقق بأن الله يعلم سره ونجواه، ويعلم ما توسوس به نفسه، ويعلم أنه معه حيث كان وكيف كان، لا يتعدى حدود الله، ولا يعمل ما يخالف سنن رسول الله ﷺ، واللص لا يسرق المتاع إلا إذا غاب صاحبه، والرجل لا يأتى زوجته أمام ابنها حياء منه، فكيف يعمل المؤمن المعصية مع علمه بأن الله معه ويعلم سره ونجواه ولا يخاف جلاله ولا يخشى عظمته وكبرياءه؟!

فالمرتكب المعصية نسى يوم الحساب، وجهل معنى صفة العلم لله، أعوذ بالله من جهل يوقع فى معصية الله، ومن نسيان يلقى صاحبه فى هوة النار يوم القيامة، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يشهدنى أنوار صفة العلم حتى لا تحجب عين بصيرتى عن شهوده معى سبحانه، فأكون مراقباً لجلاله، حاضراً معه سبحانه، حيياً منه سبحانه، راهباً عظمته، راغباً فى فضله

العظيم.

٤ الإرادة

الإرادة هى صفة قديمة تخصص المكن بالوجود أو بالعدم، وبالطول أو القصر، وبالحسن أو القبيح، وبالعلم أو الجهل، إلى غير ذلك من الشؤون والأحوال، قال جل ذكره سبحانه فى بيان أنه تعالى مالك الملك يتصرف فى ملكه كيف يشاء وفق ما أراد وقدر: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ آل عمران ٢٦-٢٧.

وقال تعالى فى بيان أنه فاعل مختار يتصرف بقدرته البالغة حد النهاية ما شاء وكيف شاء: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ المائدة ١٧.

وقال تعالى فى بيان أنه حكيم فى صنعه يفعل بحكمته واختياره ما تقتضيه إرادته ومشيئته حسبما تقضى به المصلحة: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ الشورى ٢٧.

وقال جل ثناؤه فى بيان كمال إرادته وعظيم قدرته: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يس٨٢-٨٣، وقال تعالى فى بيان أنه فاعل مختار يفعل ما يشاء أن يفعله بمقتضى إرادته ومشيئته: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ الشورى ٤٩-٥٠، وقال سبحانه وتعالى فى بيان أنه فاعل مختار: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ القصص ٦٨، وقال جلت قدرته فى بيان أن خلقة الإنسان وتصويره فى الرحم على صورة متنوعة وأشكال متباينة

إنما هو بمحض إرادته ومشيئته: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ آل عمران ٦.

وقال سبحانه فى كمال تنزيهه عن الولد، وكمال اختياره: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ الزمر٤.

وقال جل شأنه فى بيان أن الهداية والضلال إنما هما بمحض إرادته ومشيئته: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ الأنعام ١٢٥-١٢٦.

وقال تبارك اسمه فى بيان أنه إذا تعلقت إرادته تعالى بإهلاك قوم سلط عليهم أنفسهم بالفسق ومخالفته تعالى فيما أمر به ونهى عنه: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ الإسراء ١٦.

تفصيل ذلك أن الله تعالى مريد للكائنات، مدبر للحادثات، فلا يجرى فى الملك والملكوت قليل ولا كثير، ولا صغير ولا كبير، خير أو شر، نفع أو ضر، إيمان أو كفر، عرفان أو نكر، فوز أو خسر، زيادة أو نقصان، طاعة أو عصيان، إلا بقضائه وقدره وحكمه ومشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ولا فلتة خاطر، بل هو المبدئ المعيد، الفعال لما يريد، لا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوة له على طاعته إلا بمعونته وإرادته، لو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته عجزوا عن ذلك، وأن إرادته قائمة بذاته فى جملة صفاته، لم يزل كذلك موصوفاً بها، مريداً فى أزله لوجود الأشياء فى أوقاتها التى قدرها، فوجدت فى أوقاتها كما أراد فى أزله من غير تقدم ولا تأخر، بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير، دَبَر الأمور بلا ترتيب أفكار وتربص زمان، فلذلك لا يشغله شأن عن شأن.

كمال اليقين بمعانى إرادة الله

المؤمن المتحقق بأنوار صفة إرادة الله تعالى متجمل بحُلة الرضا عن الله سبحانه لاعتقاده أن كل الأمور والشؤون والأحوال بإرادته سبحانه وبتقديره أزلاً، فيكون منشرح الصدر بمواقع القضاء، راضياً عن الله فى كل شأن من شؤونه، مقبلاً على الله بكليته وبذلك يفوز برضوان الله الأكبر، فإن رضا العبد عن الله، فضل من الله عظيم ينبئ عن رضاء الله عن العبد، قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ البينة ٨.

وليس المراد من اليقين بإثبات الإرادة لله أن يكون المؤمن عالماً بالأشكال المنتجة، ولكن ليكون المؤمن مطمئناً بقضاء الله وقدره، راضياً عن الله فى كل شؤونه، راغباً فيما عند الله من الفضل العظيم، خائفاً مما قدر أزلاً مما لم يكاشف به، فيكون ممن أثنى الله سبحانه عليهم فى كتابه العزيز بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ فاطر ٢٨.

وليس العلم الذى يجعل الألسنة زلقة بإقامة الحجة، ويجعل القلوب مفعمة بحب الجدل والمناظرة والعناد علماً عند العلماء بالله تعالى، ولكنه جهل، لأن العلم عندهم هو الذى يوجب الخشية من الله تعالى، والمراقبة لجنابه عز وجل، والحضور معه سبحانه.

ومن يتناول عن طهور العلم بالإرادة حقاً، لا يشهد فى الوجود فاعلاً مختاراً غير الله تعالى، وتمنعه الخشية من الله سبحانه أن يسئ الظن به سبحانه، أو يعترض عليه فى قضائه وقدره، ولا يكون عدم الرضا إلا من الجهلاء الذين يظنون أنهم علماء وليسوا علماء، فإن الله حصر العلم فى خشيته، لا فى شقشقة اللسان والجدل والمناظرة، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ فاطر ٢٨، فعالم عند الناس لا يخشى الله هو جاهل عند الله، ولو أنه كان عالماً حقيقة لما احتجب عن معانى الصفات المخوفة للعلماء العارفين، ولما غاب عن مشاهدة عظمة وكبرياء وجلال الله غيبة تجعله يعصى الله تعالى بعلمه.

وقد وصف الله العلماء فى كتابه العزيز وأثنى عليهم، وجعلهم هم الأحياء وغيرهم أمواتاً،

قال تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الزمر ٩، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ النساء ٨٢، فبين سبحانه وتعالى أن أولى الأمر فينا هم العلماء الذين يستنبطون من كتاب الله عز وجل، وهم أهل الخشية الذين أمرنا الله بطاعتهم والاقتداء بهديهم.

وأنت يا أخي إذا تحققت أن مولاك الذى خلقك مريد فاعل مختار، لا يكون شئ إلا بإرادته وتدبيره، كيف تغضب أو تعترض عليه سبحانه؟ أسأل الله تعالى أن يجملنا بكمال اليقين بمعانى إرادته وجميع صفاته التى وردت عنه سبحانه، إنه مجيب الدعاء.

٥ و ٦ السمع والبصر

السمع هو صفة قديمة تنكشف بها المسموعات، ولكن لا بأُذُن وصماخ، تعالى الله عن صفة الحوادث علواً كبيراً.

كما أن البصر هو صفة قديمة تنكشف بها المبصرات، ولكن لا بعين ولا حدقة ولا جارحة ولا بغير ذلك، فإن ذلك من صفات الحوادث المنزه عنها الله تعالى.

قالى تعالى فى صفة السمع لنفسه: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ طه ٤٣-٤٦، وقال تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ الزخرف ٨٠، وقال تعالى فى ثبوت صفة البصر لنفسه تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ الشورى ١١، وقال تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ الأنعام ١٠٣.

تفصيل ذلك أن الله سبحانه وتعالى سميع بصير، يسمع ويرى، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفى، ولا يغيب عن رؤيته مرئى وإن دق، ولا يحجب سمعه بُعد ولا يدفع رؤيته ظلام، يرى من غير حدقة ولا أجفان، ويسمع من غير أصمخة ولا آذان، كما يعلم من غير قلب، ويبطش بغير جارحة، ويخلق بغير آلة، إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذات الخلق.

من ذاق حلاوة الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى سميع بصير، وتصور معنى السمع والبصر بالتنزيه الذى يليق بالجانب العلى، وتحقق العجز عن إدراكهما لعلو صفات الحق سبحانه وتعالى عن أن يكون لها مثيل تمثل به، أو نظير تشبه به، أو كيف تكيف به، تعالى الله علواً كبيراً.

من تحقق بكل تلك الحقائق امتلأ قلبه خشية من السميع لكلام نفسه فى نفسه، البصير بجولان الهم والخواطر بقلبه، فكان كأنه على صراط أدق من الشعرة وأحد من السيف، لو مال قدر الشعرة هوى فى مكان سحيق، وراقب السميع البصير مراقبة من يعلم قدر عقوبة الجبار المنتقم شديد البطش ممن خالف أمره أو فعل ما نهاه عنه، فيكون تصديقه بإثبات الصفات لجنابه العلى كما علم، يوجب الخشية من الجلال الإلهى، ويجعل العالم بمراقبة الله تعالى ومحاسبة نفسه على الخاطر الذى يخطر على القلوب، واللمة التى تلم بها، بل وعلى النفس الواحد وطرفة العين.

وكلما قرب العبد من الله كلما اشتد خوفه من عظمته وجلاله، كلما انكشفت له أسرار معانى الصفات كلها كانت خشيته أشد ورهبته أقوى، وتمثلت له الجحيم بما فيها من أنواع العذاب وآلام العقوبات، فيكون وهو مع الناس يمشى على الأرض مشاهداً للملكوت الأعلى، ناظراً إلى نعيم الجنة وأنواع الملاذ التى لا توصف فيها، وإلى جحيم النار وآلام العذاب الذى لا يطاق، فيكون كما قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ۝ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ۝ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ الفرقان ٦٣-٦٤، إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ الفرقان ٧٠، وقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ المؤمنون ١-٢، إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ المؤمنون ١١.

وهذه الصفات التى أثنى الله بها على المؤمنين، هى ولا شك صفات من كمل علمه بكمال الصفات، فاطمأن قلبه بذكر الله تعالى، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ الرعد ٢٨.

أسأل الله أن يمنحنى وأهلى وأولادى وإخوتى مشاهد أهل مقام الإحسان، ويمنحنا

درجات القرب ومشاهد الحب، قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ المجادلة ١١، إنه مجيب الدعاء.

* * *

٧ الكلام

كلام الله تعالى القائم بذاته هو صفة أزلية ليس بحرف ولا صوت، ولا يقبل العدم وما فى معناه من السكوت، ولا التبعيض ولا التقديم ولا التأخير، ثم هو مع وحدته دال أزلاً وأبداً على جميع معلوماته التى لا نهاية لها، وهو الذى عبر عنه بالنظم المعجز المسمى أيضاً بكلام الله تعالى، وهو معجزة رسول الله القائمة الدائمة.

والقرآن هو الدعوى والحجة، وكل نبى دعوته غير حجته، فكانت المعجزة فى كل زمان تناسب أهله، فسيدنا موسى عليه السلام لما اشتهر فى زمنه السحر وكثر، جعل الله معجزته انقلاب العصا ثعباناً يأكل غيره، وسيدنا عيسى عليه السلام لما كان فى زمن كثر فيه الأطباء جعل الله معجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، الأمر المعجز، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لما كثر فى زمنه الفصحاء والبلغاء كانت معجزته القرآن المعجز لهم عن معارضته بالإتيان ولو بمثل أقصر منه، قال تعالى فى ثبوت تلك الصفة لنفسه سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ النساء ١٦٤، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ الشورى ٥١.

وتفصيل ذلك أن الله جل جلاله متكلم آمر ناهٍ واعد متوعد بكلام أزلى قديم قائم بذاته، لا يشبه كلام الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق، فليس بصوت يحدث من تموج الهواء واصطكاك الأجرام، ولا حرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المُنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام، وأن القرآن مقروء بالألسنة مكتوب فى المصاحف محفوظ فى القلوب، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى، لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق، وأن موسى عليه السلام سمع كلام الله بغير

صوت ولا حرف، كما نرى ربنا سبحانه وتعالى إن شاء الله يوم القيامة من غير جوهر ولا شكل ولا لون ولا عرض، وإذا كانت له هذه الصفات كان حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً، متكلماً بالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، لا بمجرد الذات.

❊ ❊ ❊

مزيد بيان فى صفة الكلام لله سبحانه وتعالى

الإيقان بإثبات صفة الكلام لله سبحانه متعين على كل مسلم لما بينا من الأدلة القرآنية، ولأمر آخر لا يتم إيمان المؤمن إلا به، وهو التصديق بكتب الله التى أنزلها على رسله التى جعلها الله تبياناً لكل شئ، وهدى ونوراً وذكرى، بَيَن بها سبحانه ما يجب أن تنعقد عليه القلوب، وما يجب أن يقوم به المسلم لله من العبادات وما يجب عليه لوالديه وأولاده وإخوانه المؤمنين ولأهل ذمة الله ورسوله ﷺ وذمة المسلمين، وما يجب أن يكون عليه المسلم من الأخلاق، فإن إثبات صفة الكلام تجعل المسلم يتقبل أحكام كتاب الله بكمال الإيقان، ويسارع إلى العمل بما أمره الله وترك ما نهاه الله عنه، وليس على المسلم أن ينظر إلى صفة من صفات المعانى بعيون عقله التى تحكم نفسه ونظرائه وأشباهه، ولكن عليه أن يؤمن إيماناً لا يشوبه شك لشهوده حساً دلائل إثبات الصفات، وينزه صفات الله تعالى عن حد يحدها أو كيف يكيفها، تعالى الله عما يصفه الواصفون.

حتى إذا انعقد قلبه على اليقين الحق كاشفه الله بأنوار صفة الكلام، فيقرأ القرآن سامعاً له من رسول الله ﷺ بخشوع وهيبة من الله تعالى، فيكون بين وجل من آيات الإنذار، ومزيد إيمان من الآيات الدالة على معانى صفات الله تعالى، ويتجمل بالتوكل على الله تعالى من الآيات الدالة على أنه الفاعل المختار الذى يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، فيكون التالى للقرآن مع المراقبة كأنه يسمع الكلام عن الله تعالى، بعد أن يستحضر أنه يسمعه عن رسول الله ﷺ.

المبحث الثالث

من علوم القرآن

تلاوة القرآن حق تلاوته

ولما كان لابد لنا أن نبين ما لابد منه لمن يتلو القرآن حق تلاوته من الأصول التى تجعله ملاحظاً لمعانى كلام الله تعالى حال التلاوة، فاهماً ما لابد من فهمه للتالى المتأمل، حتى يكون أخى ممن يتلو كتاب الله حق تلاوته، فإن التالى إذا فهم معنى ما يتلوه من كتاب الله سارع إلى العمل بما فهمه مما مدحه الله ورغب فيه، وتباعد عما نهى عنه القرآن مما ذمه الله وكرهه، وبذلك يمكنه أن يفهم ما يتلوه ويفسر لغيره ويبين وجوه التأويل.

قال الإمام أبو طالب المكى ﷺ: فأما ظاهرُ الكلامِ فعلى معنيين عجيبين، وهو مجمل مختصر ومفصل مكرر، فإجماله واختصاره للبلاغة والإيجاز، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ الأنبياء ١٠٦، ومكرره وتفصيله للإفهام والتذكار، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ القصص ٥١، وقال عز وجل فى المبهم المجمل والتوحيد المفصل: ﴿الٓر﴾ هود ١، فهذه ثلاثة أسماء، الله لطيف رحيم، وقيل: هى حروف من اسم الرحمن، ثم أظهر السبب فقال: ﴿بِكِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ هود ١، يعنى بالتوحيد ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ هود ١، أى بالوعد والوعيد، ثم قال: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ هود ١، أى للأحكام ﴿خَبِيرٍ﴾ هود ١، أى بالأحكام، خبير بالتفصيل للحلال والحرام ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هود ٢، هذا هو التوحيد الذى أحكمه ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ هود ٢، هذا هو الوعد والوعيد الذى أعلمه.

المختصر للإيجاز

فمن المختصر للإيجاز قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ الإسراء ٥٩، ففى هذا مختصر ومحذوفان فالمضمر قوله: ﴿مُبْصِرَةً﴾ الأسراء ٥٩، المعنى آية مبصرة فأضمر ومحذوفاه قوله: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ الأسراء ٥٩، المعنى: ظلموا أنفسهم بالتكذيب بها، فاختصرت كلمتان من كلمتين

للإيجاز. ومثله قوله: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ الكهف٤٢، الخواء: الخلاء، والعروش: السقوف وهى جمع عرش، فكيف تكون خاوية من العروش والعروش موجودة فيها؟ فهذا من المختصر المحذوف، ومعناه: وهى خاوية من ثمرها أو من أهلها، واقعة على عروشها. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ البقرة ١٧٧، حذف الفعل وأقيم الاسم مقامه، فالمعنى فيه، ولكن البر من آمن بالله وبمثل هذا المعنى.

قوله عز وجل ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ البقرة ٩٣، أى: حب العجل، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ الكهف ٧٤، ولم يذكر قتله، والمعنى: بغير نفس قتلها فحذف الفعل. ومثله: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ المائدة ٣٢، ضمر قوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ المائدة ٣٢، قتلها أو بغير فساد فى الأرض فاكتفى عنه بذكر غير الأولى. وكذلك قوله: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ آل عمران ٨٣ ، معناه: ومن فى الأرض. وكذلك قوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ التين ٧، متصل بقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ التين ٤، وفصل بينهما النعت والاستثناء، والمعنى: فما يكذبك بعد هذا البيان أيها الإنسان بالديانة، فأى شئ يحملك على التكذيب بأن تدين لله تعالى وهو أحكم الحاكمين.

المبدل المضمر

ومن المبدل المضمر: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ الإسراء ٧٥، المعنى: ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى، فأضمر ذكر العذاب وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة والممات، فأقام الوصف مقام الاسم، ويصلح أيضاً أن يترك الوصف على لفظه ويضمر: أهل، فيكون ضعف عذاب أهل الحياة وضعف عذاب أهل الممات، كما أضمر: أهل، فى ذكر القرية وذكر العير فقال: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ يوسف ٨٢، والمعنى: واسأل أهل القرية واسأل أهل العير.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الأعراف ١٨٧، هو من المبدل المضمر، مبدله: ثقلت، ومعناه: خفيت، أبدل بدلالة المعنى عليه لأن الشئ إذا خفى علمه ثقل. وكذلك قوله: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الأعراف ١٨٧، معناه: على، ومضمر: أهل، والمعنى: خفيت

على أهل السماوات وأهل الأرض ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ الأعراف ١٨٧، يعنى فجأة.

ومنه قوله عز وجل: ﴿تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ يوسف ٨٥، فيه مضمر ومحذوف، فمحذوفه: تزال، ومضمره: لا، التى هى جواب القسم، والمعنى: قالوا تالله لا تزال تفتؤ تذكر يوسف، فأضمرت لا وأبدلت تزال لقوله: ﴿تَفْتَؤُا۟﴾ يوسف ٨٥، وهى من مختصر الكلام وفصيحه وبليغه وهى لغة لبعض العرب، وفى القرآن من كل لغة. ومن هذا قوله عز وجل: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ الواقعة ٨٢، وقوله سبحانه: ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ إبراهيم ٢٨، معناه تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون، وكذلك بدلوا شكر نعمة الله كفراً بها. ومثله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ الحج ٤٥، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ الحج ٤٨، معناه: أهل القرية، مثل قوله: ﴿وَٱلْعِيرَ﴾ يوسف ٨٢، المعنى: أهل العير، والعير هى الإبل المجهولة، وهذا الذى يسميه النحويون المجاز.

وهكذا قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء ٩، معناه: للطريقة التى هى أقوم. ومثل قوله عز وجل: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الإسراء ٥٣، أى: يقولوا الكلمة التى هى أحسن. ومثل هذا قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فصلت ٣٤، السيئة: أى: بالكلمة أو بالفعلة التى هى أحسن، أو مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الأنبياء ١٠١، أى: الكلمة الحسنى، والوجه الآخر أن الحسنى اسم لا نعت ومعناه الجنة، وهكذا قوله: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ البقرة ١٠٢، أى: على عهد ملك سليمان، فأضمر قوله: عهد. ومثل قوله: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ آل عمران ١٩٤، أى: على ألسنة رسلك، فأضمر ألسنة.

المكنى المضمر

ومن المكنى المضمر قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الكهف٦٣، أضمر الحوت وذكره واسم موسى للاختصار، والمعنى: وما أنسانى ذكر الحوت لك إلا الشيطان. ومثل قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ القدر ١، فكنى عنه ولم يتقدم له ذكر، وكذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ ص ٣٢، يعنى توارت الشمس بحجاب الليل، فكنى عنها ولم يجر لها ذكر.

المبدل المختصر

ومن المبدل المختصر قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ البقرة ٢٠٦، معناه حملته العزة على الإثم، أى: حمله التعزز والأنفة على الإثم ولم يبال، فأخذته بمعنى: حملته، وبالإثم بمعنى: على الإثم. ومن هذا قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ البقرة ٢٥٥، أى: لا تحمله سنة ولا نوم، لأن السنة تحمل العبد، أى: تذهب به عن التيقظ.

المنقول المنقلب

ومن المنقول المنقلب قوله عز وجل: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ الحج ١٣، اللام فى ﴿لَمَن﴾ الحج ١٣، منقولة، والمعنى يدعو من لضره أقرب من نفعه. ومثله: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ القصص ٧٦، معناه لتنوء العصبة بها، أى: لتثقل بحملها لثقلها عليهم.

المضمر المختصر

ومن المضمر المختصر أيضاً قوله عز وجل: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ هود ٦٠، ضميره إحدى كلمتين: كفروا نعمة ربهم، كفروا توحيد ربهم، فأضمر للاختصار وانتصاب الاسم لسقوط الخافض. وفيها وجه غريب إلا أنه محمول على المعنى أى: غطوا ربهم، التغطية أى: غطوا آياته وما دعا إليه من الحق، والمعنى: كفرهم غطى عليهم بما غطوا، هكذا حقيقة فى التوحيد إذ الأولية فى كل فعل منه وهم ثوان فيما بعد، فهو بمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ الأنعام ٩، اللبس: التغطية.

ومن المضمر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ الزخرف ٦٠، ليس أنه يجعل من البشر ملائكة، ولكن معناه لجعلنا بدلاً منكم ملائكة، ويصلح: لجعلنا، فبدلكم بمعنى: منكم.

المبدل منه

ومن المبدل منه قوله عز وجل: ﴿وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ المؤمنون ٦١، اللام بدل من الباء، المعنى وهم بها سابقون، لأنهم لو سبقوها لفاتتهم، ومثله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ طه ٧١،

معناه على جذوع، وكذلك: ﴿فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المؤمنون ٩٤، معناه أى: مع القوم الظالمين، وبمعناه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ﴾ الطور ٣٨، أى: عليه ويصلح به، وكذلك قوله: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ﴾ المؤمنون ٦٧، أى: عنه، يعنى عن القرآن فعلى هذا مجاز، قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ الفرقان ٥٩، أى: سل عنه فحروف العوامل يقوم بعضها مقام بعض، ومثله قوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ الزمل ١٨، أى: فيه، يعنى فى اليوم، وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ النساء ٢، أى: مع أموالكم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ المائدة ٦، أى: مع المرافق لأنها داخلة فى الغسل، والحروف العوامل ينوب بعضها عن بعض، ولو أظهر مثل هذا المضمر ووصل مثل هذا المحذوف لكانت القراءة ضعيفة.

الموصول المكرر

ومن الموصول المكرر للبيان والتوكيد قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ يونس ٦٦، قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ يونس ٦٦، مردود رده للتوكيد والإفهام، كأنه لما طال الكلام أعيد ليقرب من الفهم، والمعنى: ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إلا الظن، أى: أتباعهم الشركاء ظن منهم غير يقين، ونحوه من المكرر المؤكد: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾ الأعراف ٧٥، اختصاره الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا، فلما قدم الذين استضعفوا وكان المراد بعضهم كرر المراد بإعادة ذكر من آمن منهم للبيان.

المكرر المؤكد

ومن المكرر المؤكد قوله عز وجل: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ غافر ٢١، فقوله تعالى: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ غافر ٢١، فوصل بمن ووكد بكانوا أشد، وقراءتها فى مصحف ابن مسعود: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾، ليس فيها ﴿كَانُواْ﴾ غافر ٢١، ولا قوله: ﴿هُمۡ﴾ غافر ٢١، وبمعناه وإن قصراً ـ قوله تعالى: ﴿لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ﴾ الزخرف ٣٣، وهذا مما طال للبيان، والمعنى: لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن، فلما قدم ﴿مِّن﴾ الزخرف ٣٣، وهى أسماء من يكفر، أعيد ذكر البيوت مؤخراً.

المكنى المبهم المشتبه

ومن المكنى المبهم المشتبه قوله عز وجل: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ النحل ٧٥، الشئ فى هذا الوضع الإنفاق مما رزق الله، وقوله تعالى بعده: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ النحل ٧٦، الشئ فى هذا الموضع الأمر بالعدل والاستقامة على الهدى، وكذلك قوله: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ الكهف ٧٠، الشئ فى هذا الوضع وصف مخصوص من وصف الربوبية من العلم الذى علمه الخضر عليه السلام من لدنه لا يصلح أن يسأل عنه حتى يبتدئ به فلذلك كنى عنه.

وكذلك العلم على ضربين: ضرب لا يصلح أن يبتدئ به حتى يسأل عنه، وهو مما لا يضيق علمه، فلذلك وسع جهله وحسن كتمه. وعلم لا ينبغى أن يسأل عنه من معنى صفات التوحيد ونعوت الوحدانية، لا يوكل إلى العقول، بل يخص بها المراد المحمول، فعلم الخضر الذى شرط على موسى عليهما السلام أن لا يسأل عنه حتى يبادئه به من هذا النوع، والله غالب على أمره.

وقوله عز وجل: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ الطور ٣٥، يعنى الله أى: كيف يكون خلق من غير خالق؟ ففى وجودهم ثبوت خالق فهم دلالة عليه أنه خلقهم، وروينا ذلك عن ابن عباس وعن زيد بن على رضى الله عنهما قالاً فى قوله عز وجل: ﴿مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ الطور ٣٥، أى: من غير رب، كيف يكون خلق من غير خالق؟!

وقوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ النحل ٧١، فالبعض الأول المفضل فى الرزق هم الأحرار والبعض الآخر المفضول هم المماليك، ومثله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ ق ٢٣، قرينه هذا هو الملك الموكل بعلمه أحضر ما عنده مما علمه من فعله، وقوله عز وجل: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ ق ٢٧، قرينه هذا هو شيطانه المقرون به. ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ الأعراف ٢٠٢، الهاء والميم المتصلة بـ(إخوان) أسماء الشياطين، والهاء والميم المتصلة بـ (يمدون) أسماء المشركين، أى: الشياطين إخوان المشركين يمدون المشركين فى الغى ولا يقصرون عنهم فى الإمداد. وبمعنى هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا

سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ النحل ١٠٠، الهاء الأولى المتصلة بـ (يتولون) كناية عن إبليس، والهاء المتصلة بالباء من قوله: ﴿هُم بِهِۦ﴾ النحل ١٠٠، هى اسم الله عز وجل، وقد قيل أيضاً: إنها عائدة على إبليس أيضاً فيكون المعنى: هم به قد أشركوا فى التوحيد، أى: أشركوا بعبادة الله عز وجل.

ومثل هذا قوله عز وجل: ﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ۝ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا﴾ العاديات ٤-٥، الهاء الأولى كناية عن الحوافر، وهن ﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا﴾ العاديات ٢، يعنى الخيل تقدح بحوافرها فتورى النار، فأثرن به أى: بالحوافر النقع، يعنى التراب، والهاء الثانية كناية عن الإغارة، فوسطن أى توسطن به أى: بالإغارة، وهن ﴿فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا﴾ العاديات ٣، وسطن جمع المشركين أغاروا عليهم بجمعهم والمشركون فارون.

وبهذا المعنى قوله عز وجل: ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الأعراف ٥٧، الهاء الأولى عائدة على السحاب أى: أنزلنا بالسحاب الماء، وفى قوله: ﴿بِهِۦ﴾ مبدل ومكنى، فالمكنى هو ما ذكرناه من أسماء السحاب، والمبدل أن به بمعنى منه، ومثل هذا قوله: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ الإنسان ٦، أى: منها، وهو صريح قوله فى المفسر: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا﴾ النبأ ١٤، يعنى السحاب، وهو قوله: ﴿سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ الأعراف ٥٧، وقوله فى الهاء الثانية: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يعنى بالماء، فجمع بين اسم السحاب والماء بالهاء فأشكل.

ومن البيان الثانى والثالث للخطاب المجمل قوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ البقرة ١٨٥، فلم يفهم منه إلا أن القرآن أنزل فى شهر رمضان ولم يدر أنهاراً أنزل فيه أم ليلاً؟ فقال فى البيان الثانى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ الدخان ٣، فلم يفهم إلا أنه أنزل ليلاً فى ليلة مباركة، ولم يدر أى ليلة هى؟ فقال فى البيان الثالث: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ القدر ١، فهذا غاية البيان.

الموحد ومعناه الجمع

ومن الموحد ومعناه الجمع قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ العصر ١-٢، أى: إن الناس لفى خسران، لقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ

بِٱلصَّبۡرِ﴾ العصر ٣، ولا يستثنى جماعة من واحد، وإنما يستثنى جماعة من جماعة أكثر منهم، وإنما وحد الاسم للجنس.

الجمع المراد به الواحد

ومن الجمع المراد به الواحد قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ الشعراء ١٠٥، يعنى نوح وحده لأنه لم يرسل لقوم نوح غيره، ودل عليه قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الشعراء ١٠٦، فوحد الجمع.

الجمع المكنى

ومن الجمع المكنى قوله عز وجل: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ غافر ٥٧، يعنى فى هذا الموضع الدجال، ونزل ذلك فى ذكر الدجال واستعظامهم لوصفه، والعرب تجمع الواحد للجنس.

المقدم والمؤخر والمعطوف وما حمل على المعنى

ومن المقدم والمؤخر لحسن تأليف الكلم ومزيد البيان والإظهار، قوله عز وجل: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ النحل ١٠٦، اختصاره ومؤخره من كفر بالله بعد إيمانه وشرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ﴿وَلَٰكِن﴾ النحل ١٠٦، وأكد بقوله: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ النحل ١٠٦، لما استثنى المكره وقلبه مطمئن بإيمانه، ولم يجعل المكره آخر الكلام لئلا يليه قوله: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ النحل ١٠٦، فيتوهم أنه خبره وجعل آخر الكلام: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ النحل ١٠٦، وهو فى المعنى مقدم خبر الأول من قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ النحل ١٠٦، فأخّر ليليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ النحل ١٠٧، لأنه من وصفهم فيكون هذا أحسن فى تأليف الكلام وسياق المعنى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ الزخرف ٨٨، هذا من المعطوف المضمر ومن المقدم والمؤخر، فعاطفه قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الزخرف ٨٥، وضميره قوله وعلم

قيله، والمعنى: وعنده علم الساعة وعلم قيله يا رب، هذا على حرف من كسر اللام، فأما من نصبها فإنه مقدم أيضاً ومحمول على أن المعنى أى: وعنده علم الساعة ويعلم قيلَهِ يا رب، فأما من رفع اللام فقرأ: وقيلُه، فتكون مستأنفة على الخبر وجوابها الفاء من قوله: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ الزخرف ٨٩، أى: قوله: إن هؤلاء لا يؤمنون فاصفح عنهم. وقد تكون الواو فى قوله: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ الزخرف ٨٨، للجمع مضمومة إلى علم الساعة، والمعنى وعنده علم الساعة، وعنده قيله يا رب جمع بينهما بـ (عند) ، فهذا مجاز هذه المقارئ الثلاث فى العربية.

ومما حمل على المعنى قوله عز وجل: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ الأنعام ٩٦، ثم قال: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗا﴾ الأنعام ٩٦، فلو لم يحمل على المعنى لكانت والشمس والقمر خفضا إتباعاً للفظ قوله: ﴿فَالِقُ﴾ الأنعام ٩٦، ﴿وَجَعَلَ﴾ الأنعام ٩٦، ولكن معناه وجعل الشمس والقمر حسبانا وهى على قراءة من قرأ: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ الأنعام ٩٦، متبعة لـ﴿جَعَلَ﴾ الأنعام ٩٦، ظاهراً. وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ المائدة ٦، فى قراءة من نصب اللام محمولاً على معنى الغسل من قوله عز وجل: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ المائدة ٦، وأرجلكم أيضاً، ومن قرأ: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ المائدة ٦، خفضاً حمله على إتباع الإعراب من قوله عز وجل: ﴿بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ المائدة ٦، فأتبع الإعراب بالإعراب قبله، لأن مذهبه المسح لا الغسل.

واختيارنا نصب اللام فى المقروء على نصب الغسل وإتباع الوجه واليدين، إلا أنه روى عن ابن عباس وأنس بن مالك: نزل القرآن بغسلين ومسحين وسن رسول الله ﷺ غسل الأقدام، فنحن نفعل كما فعل.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ طه ١٢٩، من المقدم والمؤخر، فالمعنى فيه: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجلٌ مسمى لكان لزاماً، وبه ارتفاع الأجل، ولولا ذلك لكان نصباً كاللزام، فأخر لتحسين اللفظ. وبمعناه قوله عز وجل: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَا﴾ الأعراف ١٨٧، المعنى يسئلونك عنها كأنك حفى بها أى: ضنين بعلمها، ومثله قوله تعالى: ﴿أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ البقرة ١٠٦، أى: نأت منها بخير، فقدم ﴿بِخَيۡرٖ﴾ البقرة ١٠٦، وأخر ﴿مِّنۡهَا﴾ البقرة ١٠٦، فأشكل.

ومن المؤخر بعد توسط الكلام قوله عز وجل: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ الانشقاق ١٩، فى قراءة من وحد الفعل، هو متصل بقوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ الانشقاق ٦، ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ الأنشقاق ١٩، أى: حالاً بعد حال فى البرزخ، فأخر الأحوال للقرار فى الدار، وكذلك هو فى قراءة من جمع فقال: لتركبن أيها الناس، فيكون الإنسان فى معنى الناس كما ذكرناه آنفا، ويكون الجمع عطفاً على المعنى، وإنما وحد للجنس فكأنه قال: يا أيها الناس لتركبن طبقاً عن طبق، فأخر هذا الخبر لما توسطه من الكلام بالقصة ومعناه التقديم.

ومثل هذا قوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء ٨٣، وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء ٨٣، هو متصل بقوله: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ النساء ٨٣، إلا قليلاً، وآخر الكلام ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ وقد قيل: إن قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء ٨٣، مستثنى من الأول فى قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ النساء ٨٣، إلا قليلا منهم، وفى هذا بعد، والأول أحب إلىّ. وعلى هذا المعنى قرأ ابن عباس فى رواية عنه: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ النساء ١٤٨، جعله متصلاً بقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ النساء ١٤٧، إلا من ظلم، وصار آخر الكلام: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ النساء ١٤٨، فاصلا.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الأنفال ٧٣، وكذلك قوله فى أول السورة: ﴿لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الأنفال ٤-٥، ليس هذا من صلة الكلام، وإنما هو مقدم ومتصل فى المعنى بقوله: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الأنفال ١، ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الأنفال ٥، أى: فصارت أنفال الغنائم لك إذ أنت راض بإخراجك وهم كارهون، فاعترض بينهما الأمر بالتقوى والإصلاح والوصف بحقيقة الإيمان والصلاح فأشكل فهمه.

وعلى هذا قوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ الممتحنة ٤، إنما هو موصول بقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ الممتحنة ٤،

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ الممتحنة ٤، لأنها نزلت فى قولهم: فقد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك عند قوله ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ ربى، فقالوا: فهلا نستغفر لآبائنا المشركين، فنزلت هذه الآية ليستثنى القدوة فى إبراهيم فى هذا، ثم نزلت الآية الأخرى معذرة له: ﴿وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ التوبة ١١٤، إلى أن علم موته على الكفر فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ التوبة ١١٤، وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ المائدة ٣، وهذا متصل بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ المائدة ٣، إلى آخر المحرمات، ثم قال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ﴾ المائدة ٣، يعنى: فى مجاعة.

نبهنا بيسير على كثير

ومثل ما ذكرناه من علم القرآن كثير، وإنما نبهنا بيسير على كثير، ودللنا بنكت على جم غفير، لُيستدل بما ذكرناه على نحوه، ويتطرق به إلى مثله، وهذا كله على ضروب كلام العرب ومعانى استعمالهم، ووجوه استحسانهم أنه فى كلامهم، المطول للبيان والمختصر للحفظ، والمقدم والمؤخر للتحسين، وكله فصيح بليغ، لأن وصف البلاغة عندهم رد الكثير المنثور إلى القليل المجمل إلى المبثوث المفسر.

فالمقصر من الكلام عندهم مع الحاجة إلى المعانى المتفرقة عجز، والمطول منه مع الاكتفاء بالمعنى الجامع عنه عى، فلما خاطبهم بكلامهم أفهمهم بعقولهم ومستعملاتهم، ليحسن ذلك عندهم، فيكون حُجة عليهم من حيث يعقلون، لأنه أمرهم بما يعلمون وما يستحسنون حكمة منه ولطفاً.

هذا مشهد العموم من أهل العلم بمحاسن كلام العرب، وعلى هذه المعانى يفهم الخصوص من مكانهم ومشهدهم على علو مقامهم فى مكان ما أظهر لهم من العلم به، ونصيب ما قسم لهم من العقل عنه، فهم متفاوتون فى الإشهاد والفهوم، حسب تفاوتهم فى الأنصبة من العقول والعلوم، إذ القرآن عموم وخصوص ومحكم ومتشابه وظاهر وباطن، فعمومه لعموم الخلق، وخصوصه لخصوصهم، وظاهره لأهل الظاهر، وباطنه لأهل الباطن، والله واسع عليم ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ البقرة ٢١٣.

أهـل الله وخاصته

فإذا صفا القلب بنور اليقين، وأيد العقل بالتوفيق والتمكين، وتجرد الهم من التعلق بالخلق، وتأله بالعكوف على الخالق، وخلت النفس من الهوى، سرت الروح فجالت فى الملكوت الأعلى، وكشف للقلب بنور اليقين الثاقب ملكوت العرش عن معانى صفات موصوف، وأحكام خلاق مألوف، وباطن أسماء معروف، وغرائب علم رحيم رءوف، فشهد عن الكشف أوصاف ما عرف، فقام حينئذ بشهادة ما عرف، فكان ممن قال فيهم سبحانه: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ البقرة ١٢١، فحق التلاوة للمؤمنين لأنه إذا أعطاه حقيقة من الإيمان أعطاه مثلها من معناه ومعدنها حقيقة من مشاهده، فكانت تلاوته عن مشاهدة، وكان مزيده عن معنى تلاوته، وكان ذلك على معيار حقيقة من إيمانه كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ الأنفال ٢، فيكون العبد بوصف من نعت بالحضور والإنذار، وخص بالمزيد والاستبشار فى قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ الأحقاف ٢٩، وفى قوله عز وجل: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ التوبة ١٢٤، ويكون من نعت من مدحه بالعلم وأثنى عليه بالرجاء ووصفه بالخوف فى قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الزمر ٩، وقال عز وجل: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ السجدة ١٦.

فكان هذا من أهل الله وخاصته، ومن محبيه وخاصته، كما روينا عن رسول الله ﷺ: (أهل ٱلْقُرْآنِ أَهْلُ ٱللَّهِ وَخَاصَّتُهُ مِنْ خَلْقِهِ).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لا على أحدكم أن يسأل عن نفسه إلا عن القرآن فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله، وهذا كما قال، لأنك إذا أحببت متكلماً أحببت كلامه، وإذا كرهته كرهت مقاله، وقال محمد أبو سهل رحمه الله: من علامة الإيمان حب الله عز وجل، ومن علامة حب الله حب القرآن، ومن علامة حب القرآن حب النبى عليه الصلاة والسلام، وعلامة حب النبى ﷺ اتباعه، وعلامة اتباعه الزهد فى الدنيا. وعن بعض العارفين: لا يكون المريد مريداً حتى يجد فى القرآن ما يريد، ويعرف منه

النقصان والمزيد، ويستغنى بالمولى عن العبيد.

وأقل ماقيل فى العلوم التى يحويها القرآن من ظواهر المعانى المجموعة فيه أربعة وعشرون ألف علم وثمانمائة علم، إذ لكل آية علوم أربعة: ظاهر وباطن وحد ومطلع، وقد يقال: يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتين من العلوم، إذ لكل كلمة علم، وكل علم عن وصف، فكل كلمة تقتضى صفة، وكل صفة موجبة أفعالاً حسنة وغيرها على معانيها، فسبحان الفتاح العليم.

وإتماماً للموضوع المتعلق بصفة الكلام أبين طرق الأئمة فى تلاوة كلام الله المقدس.

معاملة العبد فى التلاوة

قال رسول الله ﷺ: (أَفْضَلُ عِبَادَةِ أُمَّتِى قِرَاءَةُ ٱلْقُرآنِ)، وقال عليه الصلاة والسلام: (لَوْ كَانَ ٱلْقُرْآنُ فى إهَاب مَا مَسَّتْهُ النّارُ)، وقال عليه الصلاة والسلام: (مَا مِنْ شَافِع أَفْضَل مَنْزِلَةً عند اللهِّ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ مِنَ الْقرْآنِ لاَ نَبِىٌّ ولاَ مَلَكٌ وَلاَ غَيْرُهَ)، وقال عليه الصلاة والسلام: (يقول الله سبحانه وتعالى: (مَنْ شَغَلَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَنْ دُعَائِى وَمَسْأَلَتِى أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ ثَوَابِ الشّاكِرِينَ)، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إن لهذا القرآن مناراً كمنار الطريق فما عرفتم منه فاعملوا به، وما لم تعلموا فكلوه إلى عالمه.

أستحب للمريد أن يختم القرآن فى كل أسبوع مرتين ختمة بالنهار وختمة بالليل، ويجعل ختمة النهار يوم الإثنين فى ركعتى الفجر أو بعدها، ويختم ختمة الليل ليلة الجمعة فى ركعتى المغرب أو بعدهما، ليستقبل بختمته أول النهار وأول الليل فإن الملائكة تصلى عليه إن كانت ختمته ليلاً حتى يصبح، وتصلى عليه إن كان ختمه نهاراً حتى يمسى، فهذان الوقتان يستوعبان الليل والنهار. وفى الخبر: (لَمْ يَفْقَهْ مَنْ قَرَأَ القُرْآن فِى أَقَلّ مِنْ ثَلاثٍ)، وأمر رسول الله ﷺ عبد الله بن عمر أن يقرأ القرآن فى كل أسبوع، وكذلك جماعة من الصحابة يختمون القرآن فى كل جمعة. وروينا عن يحى بن الحارث الأنصارى عن القاسم بن عبد الرحمن قال: كان سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنعام إلى هود، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الإثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن، ويختم ليلة الخميس، وكذلك

كان زيد بن ثابت وأبى يختمان القرآن فى كل سبع. وروينا عن ابن مسعود أنه سبع القرآن فى سبع ليال فكان يقرأ فى كل ليلة سبعه. وجماعة يذكر عنهم ختم القرآن فى كل يوم وليلة، وقد كره ختمه فى أقل من ثلاث ليال طائفة، والتوسط من ذلك ما ذكرناه وهو أن يختم فى كل سبعة أيام لمن يحتاج فى فهمه إلى تفكير، وثلاث لمن كوشف بأسراره بلا تفكير، وإلا فالأولى أن يختم فى كل عشر ليال.

وصف التالين للقرآن

هذه الأصول التى ذكرت، بمراعاتها يحصل للتالى مزيد فضل من الله تعالى بفهم ما يتلوه، وبعد الفهم يبلغ التالى مبلغاً حتى يعقل عن الله ما يشاء الله أن يحيطه به علماً، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ البقرة ٢٥٥، ومن أحاطه الله علماً بشئ من أسرار القرآن كان من أهل الله لأنه يكون تالياً للقرآن عاملاً به فى سره وعلنه فيما أحبه أو كرهه، وتالى القرآن العامل به من أهل القرآن، وأهل القرآن أهل الله، ومن وفقه الله وجعله من أهله كان ممن وصفهم الله تعالى فى آخر الفتح وأثنى عليهم وبشرهم، والمريد المخلص يعرض أحواله على القرآن فما أقره القرآن داوم عليه، وما لم يقره القرآن تركه جملة واحدة، ومتى كثر أهل الله فى الوجود الذين ينصرون الله تعالى بمجاهدة أنفسهم وقهرها على العمل بالقرآن نصرهم الله ومكن لهم فى الأرض وأعزهم، قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ محمد ٧، وقال سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ المجادلة ٢٢، وقال تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ النساء ١٤١، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يفهمنا أسرار القرآن، وأن يوفقنا للعمل بالقرآن، إنه مجيب الدعاء.

المبحث الرابع

فى النبوات

تقدم الكلام على قسم النبوات فى كتاب "معارج المقربين" وبَيَنا اختلاف المذاهب فيه، وعرفنا النبى والرسول والولى والملك وأنواع النفوس، وأقمنا الحجة على حقيقة مذاهب أهل السنة والجماعة ووجه احتياج الإنسان إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والحكمة المقتضية لبعثتهم عليهم الصلاة والسلام، بما أغنى عن تقرير هذا الموضوع فى هذا المختصر، ومريد الله وطالب النجاة من الهول يوم الفزع الأكبر يجب عليه أن يحقق هذا الموضوع، حتى يأمن من استطراق الشكوك والريب إلى عقيدة التوحيد، وسهل عليه أن يراجعه فى موضعه فى كتاب "معارج المقربين" ولما كان لابد من مزيد فائدة فى مختصرنا هذا والتوضيح لأهل طريقنا، أحببت أن لا أخلى مختصرى هذا من فوائد تكون جمالاً للواصل وعلماً للسالك.

الإنسان إجمالاً

معلوم أن حكمة الحكيم القادر اقتضت أن يكون الإنسان عالماً وسطاً بين عوالم الملك والملكوت، فأبرزته القدرة كأنه صورة لجميع العوالم مع صغر حجمه، فالإنسان كون صغير، والكون كله إنسان كبير، فأودع الله سبحانه وتعالى فيه كل معانى الأنواع، فالإنسان جماد من حيث أنه من طينة ويميل إلى السكون والراحة، ونبات من حيث أنه يتغذى وينمو، وحيوان من حيث أنه يحس ويتحرك، ومَلَك من حيث أنه يشهد الغيب بدلائل المشهود ولا يعصى الله ما أمره ويفعل ما أمره الله سبحانه به إذا صفا وتكمل، وإبليس إذا نزع إلى هواه ورأيه وحظه ونسى الحساب، وخليفة عن ربه إذا تجمل بأخلاق الربوبية.

الإنسان هو الكل فى الكل، فسبحان القادر الحكيم يبلغ بكمالاته النفسانية إلى أن يكون فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، وينحط باتباع حظه وهواه إلى أن يكون فى هاوية السخط والمقت ولظى الجحيم، وبينهما دركات أو درجات، قال الله تعالى فى التنبيه بقدر الإنسان: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن

رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ الحجر ٢٨-٢٩، وقال سبحانه وتعالى فى بيان منزلة الإنسان العلية وما انحط إليه من البلية: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ التين ٤-٥، وقال الله تعالى فى بيان أن الإنسان قد يكون شيطاناً: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ الأنعام ١١٢.

فالإنسان وهو الهيكل الصغير الضعيف كما قال الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ النساء ٢٨، وقال الله تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ غافر ٥٧، جامع لكل حقائق الكائنات، يبلغ من المقامات فى القرب من الله تعالى ما به يطيعه الله ويجيبه، وينحط بالمعصية والمخالفة إلى أسفل الدركات حتى يتمنى أن يكون تراباً، هذا هو الإنسان إجمالاً، وقد فصلنا طرفاً من هذا الموضوع فى كتاب " النور المبين لعلوم اليقين" فليراجعه الراغب فى العلم.

حكمة بالغة

لما كان الإنسان هو صورة الكون أجمع، وهو المقصود بالذات من كل الكائنات، كان لابد له أن يعرف الله بقدر ما أهله الله لمعرفته لا بقدر الجناب المقدس، تنزه الله ذاتاً وصفة واسماً عن أن يدركه مخلوق، أو يعلمه حق العلم مربوب مقهور، وقد اقتضيت الحكمة لكمال تنزيه الله ذاتاً وصفة واسماً عن الإدراك والتحديد والكيف والتشبيه، أن يجعل لكل رتبة من مراتب الوجود العاليات معلماً مخلوقاً مشهوداً، يُظهر سبحانه بهذا المخلوق ما لابد لأهل تلك الرتبة من العلم به سبحانه ومشاهدة آياته وأسمائه، فجعل سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام معلماً للملائكة، وآية أشهدهم بها غرائب حكمة الحكيم، وعجائب قدرة القادر البديع، فسجد الملائكة كلهم أجمعون عندما علموا بسيدنا آدم عليه السلام، وشهدوا فى آدم من بديع الحكمة وعجيب القدرة، فكان الملائكة الروحانيون مع طهارتهم من الشهوات والحظوظ والأهواء وعلوهم عن التدنيس برذائل الشهوات فى حاجة إلى معلم يعلمهم ما يجب أن يعلموه، ونور يبين لهم ما لابد لهم أن يشهدوه.

حكمة بالغة سرها مقتضى تنزيه الذات الأحدية وكمال تقديسها عن الإدراك والتحديد

وكمال التشبيه، فكان سيدنا آدم عليه السلام وهو روحانى جسمانى تخفى أنوار روحانيته بقيود جسمانيته، إظهاراً لقدرة القادر الحكيم، ودلائل حق على كمال القدرة وجمال الحكمة، فلما كسفت ظلمات الجسم أنوار الروح هبط من درجات العلو إلى السفل، حتى أناب إلى الله تعالى بالتوبة التى تلقاها من ربه عز وجل، قال الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ البقرة ٣٧، ولما كانت طرق العلم: الخبر الصادق والحس الصحيح والعقل الكامل، معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النحل ٧٨، فجعل سبحانه وتعالى الأسماع للخبر الصادق، والأبصار لشهود الأكوان الدالة على مكونها سبحانه، والقلوب لفقه الآيات الدالة على القادر الحكيم المصور البديع المنعم المتفضل المعطى الوهاب، ولمقتضى تلك الحكمة كان من فضل الله تعالى على الإنسان أن يدله عليه سبحانه، ويبين له سبله سبحانه، ويرشده لما فيه خيره وصلاحه فى الدنيا والآخرة، وكانت سُنة الله فى خلقه أن يعلمهم ما لابد لهم منه من العلوم بمعلم مخلوق كما قدمنا.

الرسل أنوار تضئ لمن هداهم الله

بعث الرسل عليهم الصلاة السلام معلمين لعباده مرشدين لخلقه، مبينين لسبله سبحانه بأعمالهم وأقوالهم وأحوالهم.

ولما كان تعليم الخلق لابد أن يكون بالقول والعمل والحال، اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الرسول إنساناً مثلنا يعلمنا كيف نأكل ونشرب وننام ونبيع ونشترى ونعامل الناس، ويعمل أمامنا أنواع العبادات التى تقربنا لربنا سبحانه وتبعدنا عن كل ما يغضب ربنا، ويبين لنا وجوه الحكمة فى كل مأمور به أو منهى عنه، وهى سُنة الله الماضية وحكمته الدالة على فضله وإحسانه وكرمه، فكانت الرسل عليهم الصلاة والسلام أنوارا تضئ لمن هداهم الله سبحانه، ويقيمون الحجة على من أضلهم الله حتى تكون الحجة البالغة لله جل جلاله، ويتجلى الحكم العدل بالحجة على الخلق، والمنعم الوهاب ذو الفضل العظيم بالإحسان والحنان لمن سبقت له الحسنى من عباده الذين هداهم الله واختارهم.

حكمة عجزت الأرواح الطاهرة عن إدراك غوامضها، وسر سجدت العقول على أعتابه، لا يُسأل عما يفعل سبحانه وتعالى وهم يُسألون، وهو الحكم العدل، وهو ذو الفضل العظيم، وهو القهار المنتقم، وهو الغفور الرحيم، وهو القوى المتين، وهو اللطيف الخبير، سبحان من لا يعلم قدره غيره، ولا يبلغ الواصفون صفته، نحمده ونشكره على أن جعلنا من أمة حبيبه ومصطفاه ﷺ، وأكرمنا سبحانه وتعالى بأن جعلنا خير أمة أخرجت للناس وجعلنا أمة وسطاً، نسأله سبحانه وتعالى أن يَمن علينا بأجمل مواهبه فى الدنيا والآخرة، وأن يجعلنى وأهلى وأولادى وإخوانى المسلمين ممن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

معرفة خاتم الأنبياء

لما كان هذا المختصر إنما وضعته لأبين فيه أن الإسلام دين الله، وكان الواجب على المسلم أن يكون على بينة من معرفة خاتم الأنبياء وخاتم رسل الله عليهم الصلاة والسلام، والشفيع الأعظم يوم الهول الأعظم، والوسيلة العظمى لكل مخلوق من الملائكة والإنس والجن سيدنا ومولانا محمد ﷺ، اختصرت على أن أبين للمسلم ما يجب أن يعتقده بالنسبة لسيدنا ومولانا محمد ﷺ، وما يحسن أن يعلمه، وبذلك يكون قد آمن بكل رسل الله سبحانه، وصدق بكل كتب الله سبحانه، فأبتدئ بنسبه الشريف ﷺ.

نسبه الشريف ونشأته ﷺ

هو سيدنا محمد ﷺ بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصى، بن حكيم (المشهور بكلاب) بن مرة، بن لؤى، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركه، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان.

ولد ﷺ بمكة يوم الاثنين (لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام الفيل) فى عهد كسرى أنو شروان فى ٢٠ أبريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام، فنشأ ﷺ يتيماً فقيراً فآواه الله وأغناه بمصداق قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ الضحى ٩-٧، وتولى سبحانه تربيته وتأديبه ﷺ بمصداق قوله: ﷺ

(أَدَّبَنِى رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِى)، فنشأ ﷺ على الأخلاق الفاضلة، والصفات الكاملة من العفة والمروءة والكرم والسخاء والشجاعة وحسن الخلق وصدق الحديث وحفظ الأمانة، والبعد عن الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال، إلى غير ذلك من سائر الكمالات والمزايا والفضائل، حتى صح أن يخاطبه الله تعالى بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم ٤، ولما بلغ ﷺ أربعين سنة أرسله الله تعالى للناس كافة بشيراً ونذيراً، قال الله تعالى له: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ النحل ١٢٥، وقال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ يس ٦.

دعوته ﷺ

قام ﷺ يصدع بأمر ربه سبحانه وتعالى، ويدعو جميع الخلق إلى توحيد الله سبحانه وتعالى وتنزيهه جل وعلا، وتفريده سبحانه وحده بالعبادة لا شريك له، ويأمرهم ﷺ بما فيه خيرهم وصلاحهم، والفوز بالسعادة الدنيوية والأخروية، فمن ذلك اتحاد الكلمة وعدم التفرق، ونبذ التنازع والتباغض والتحاسد، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ آل عمران ١٠٣، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ الأنفال ٤٦.

ومن ذلك بر الوالدين ومعاملتها بالملاطفة والمجاملة والإحسان إليها، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ النساء ٣٦، وصلة الرحم بالإحسان إليهما إن كانوا من ذوى الفاقة، وإلا فبالتودد بالكلام أو الزيارة أو البدء بالسلام، أو بغير ذلك مما يجلب المودة ويزيد فى المحبة، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ النساء ١.

والتعاون على الخير وجلب المنفعة لأخيه المسلم ودفع الضرر عنه، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ المائدة ٢.

وأداء الأمانة، وذلك فى قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا

حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ النساء ٥٨، وإنجاز الوعد والوفاء بالعهد وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ الإسراء ٣٤، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ النحل ٩١، والعفو وترك المجازاة على الذنب مع القدرة عليها، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ آل عمران ١٣٣-١٣٤.

ومواساة الفقير والإحسان إليه ومساعدته بقدر الطاقة، وذلك فى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ البقرة ٢٦٧.

والسعى فى الصلح بين الناس وإزالة البغضاء والشحناء فيما بينهم وذلك فى قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ النساء ١١٤، والعدل والإحسان، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ المائدة ٨، والاقتصاد والتوسط فى الأمور وعدم الإسراف فيها، وذلك فى قوله جل شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ الفرقان ٦٧.

والمسارعة إلى فعل الخيرات والمبادرة إلى انتهاز الفرصة قبل فواتها، وذلك بقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ المائدة ٤٨، إلى غير ذلك من كل خصلة حميدة وصفة جميلة.

وينهاهم عن الكفر واتخاذ الشريك لله تعالى، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ النساء ٣٦، وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ الأنعام ١٥١.

وعن الفسق وعصيان الله تعالى فيما أمر به أو نهى عنه، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ الأنعام ١٢٠، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الأنعام ١٥١.

وعن الرياء وهو العمل الذى يعمله الإنسان لأجل أن الناس يمدحونه ويثنون عليه

خيراً وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ الكهف ١١٠، أى لا يرائى فى عمله، وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ الماعون ٤-٦، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ البقرة ٢٦٤، وعن قتل النفس بغير حق وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الأنعام ١٥١، وعن الزنا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ الإسراء ٣٢، وعن الكبر بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ الإسراء ٣٧، وعن الربا وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ سورة البقرة ٢٧٥.

وعن شرب الخمر والقمار وذلك فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة ٩٠.

وعن السخرية بالناس والاستخفاف بهم واستحقارهم وعن عيب المرء أخاه ودعوته بغير ما سمى به وذلك فى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ﴾ الحجرات ١١.

وعن التجسس والغيبة وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ الحجرات ١٢.

وعن الكلام فيما لا يعنى وذلك فى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ المائدة ١٠١.

وعن المن بالصدقة بقوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ البقرة ٢٦٤.

وعن الخيانة بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الأنفال ٢٧.

إلى غير ذلك مما يضر بالهيئة الاجتماعية أو النفس أو المال أو العرض أو العقل.

فلما دعاهم ﷺ إلى ما دعاهم إليه، وأمرهم بما أمرهم، ونهاهم عما نهاهم عنه، نفروا من

قبول دعواه ﷺ، وعادوه أشد المعاداة، وهجره منهم الأهل والخلان، وكذبه الشيوخ والشبان، وتحول له ﷺ الأوداء أعداء، والرفقاء خصوماً ألداء فقام ﷺ دونهم يسفه أحلامهم ويقبح أعمالهم ويدحض أقوالهم، كل ذلك براهين قاطعة وأدلة ساطعة وآيات بينات، ومعجزات باهرات على صدق دعوته عليه الصلاة والسلام.

دلائل نبوته ﷺ

من دلائل نبوته وعلامات رسالته ﷺ، ما ترادفت به الأخبار عن الرهبان والأحبار وعلماء أهل الكتاب من صفته وصفة أمته، واسمه وعلاماته، وذكر الخاتم الذى كان بين كتفيه ﷺ، وما وجد من ذلك فى أسفار الموحدين المتقدمين من شعر تبع، والأوس بن حارثة، وشبهه، وكعب بن لؤى، وسفيان بن مجاشع، وقس بن ساعدة وما ذكره عن سيف بن ذى يزن وغيرهم، وما عرف به من أمره زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعثكلان الحميرى، وعلماء يهود، وشامول عالمهم صاحب تبع من صفته وخبره، وما ألفى من ذلك فى التوراة والإنجيل مما قد جمعه العلماء وبينوه ونقله عنهم الثقات ممن أسلم منهم مثل ابن سلام وبنى سعية وابن يامين ومخيريق وكعب، وأشباههم ممن أسلم من علماء يهود وبحيراء ونسطور وصاحب بصرى، وأساقف الشام، والجارود وسلمان والنجاشى ونصارى الحبشة، وراهب بصرى وأساقف نجران، وغيرهم ممن أسلم من علماء النصارى، وقد اعترف بذلك هرقل وصاحب رومة عالما النصارى ورئيساهما، والمقوقس صاحب مصر، والشيخ صاحبه، وابن صوريا وابن أخطب وأخوه وكعب بن أسد والزبير بن باطياء، وغيرهم من علماء اليهود، وممن حملهم الحسد والنفاسة على البقاء على الشقاء.

والأخبار فى هذا كثيرة لا تنحصر، وقد قرع أسماء اليهود والنصارى بما ذكر أنه فى كتبهم من صفته وصفة أصحابه، واحتج عليهم بما انطوت عليه من ذلك صحفهم وذمهم بتحريف ذلك وكتمانه، وليهم ألسنتهم ببيان أمره، ودعوتهم إلى المباهلة على الكاذب، فما منهم إلا من نفر عن معارضته، وأبدى ما ألزمهم من كتبهم إظهاره، ولو وجدوا خلاف قوله لكان إظهاره أهون عليهم من بذل النفوس والأموال، وتخريب الديار ونبذ القتال، وقد قال لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟

بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ آل عمران ٩٣.

إلى ما أنذر به الكهان مثل شافع بن كليب، وشق، وسطيح، وسواد بن قارب، وخنافر، وأفعى نجران، وجدث بن جذل الكندى، وابن خلصة الدويسى، وسعيد بن بنت كرير، وفاطمة بنت النعمان، ومن لا يعد كثرة.

إلى غير ذلك مما أظهر على ألسنة الأصنام من نبوته، وحلول وقت رسالته، وسمع من هواتف الجان، ومن ذبائح النصب، وأجواف الطيور، وما وجد من اسم النبى ﷺ والشهادة له بالرسالة مكتوباً فى الحجارة والقبور بالخط القديم، مما أكثره مشهور، وإسلام من أسلم بسبب ذلك معلوم مذكور.

فدلائل نبوته صلوات الله وسلامه عليه لا تحصى عداً ولا تستقصى حداً، وكيف لا... وهو رحمة الله التى عمت الملائكة والإنس والجن، ونعمته العظمى التى شملت كل مخلوق خلقه، ورسول الله الذى افتتح به الوجود، وختم به الرسالة صلوات الله عليه، أرسله عامة للناس إعلاماً بقدر مقامه العلى عند ربه سبحانه، ولم يكن رسول قبله من أولى العزم إلا وهو مرسل لقومه خاصة، ينسخ شرعه عند انتقاله من الدنيا، وهذا السيد صلوات الله وسلامه عليه نسخ شرعه الشريف كل الشرائع، ومحت شمسه المضيئة كل أنجم ظهرت.

إمداده ﷺ بأنواع المعجزات

لما كان هو المراد لذات الله تعالى ﷺ، وكان الرسل قبله صلوات الله وسلامه عليه وعليهم نوابه ينتظرون ظهوره عليه الصلاة والسلام، وآيات الكتب السماوية التى تأولها من أعمى الله بصائرهم، وأصم أسماع قلوبهم، حتى صار أكثرهم لا يسمعون ولا يبصرون ولا يفقهون، صريحة بالبشائر ببعثته ﷺ، ناطقة بفضله صلوات الله وسلامه عليه، مبشرة بإشراق أنواره المحمدية، وهو جوهرة العقد المقصود بالذات، ولذلك أمده الله تعالى بأنواع المعجزات التى أمد بها رسله صلوات الله وسلامه عليهم، دليل ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ الكوثر ١، فإن بعض أهل العلم فسر الكوثر بالخير الكثير الشامل

لنهر فى الجنة، وللمعجزات ودلائل النبوة، ولنعم الله العظمى التى أفاضها الله به ﷺ على جميع خلقه.

مقابلة بين معجزاته ومعجزات الرسل السابقين

لما كان القرآن المجيد معجزة المعجزات وآية الآيات، ونور الله الذى بَيَن به سبله، وهدى به من أحبهم من عباده، أحببت أن أفتتح به المعجزات التى وردت إما بطريق التواتر، أو بطريق صحيح أو حسن، مقابلاً بين معجزاته ﷺ ومعجزات الرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام أجمعين، فله ﷺ كل معجزة كانت لغيره من الأنبياء المشهورين:

١ فكتاب سيدنا آدم عليه السلام كان كلمات، كما قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ البقرة ٣٧، وكتاب سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى عليهما السلام كان كلمات وصحفاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ البقرة ١٢٤، وقال تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ الأعلى ١٩، وكتاب نبينا وسيدنا محمد ﷺ مهيمناً على الكل كما قال تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ المائدة ٤٨.

٢ وأن سيدنا آدم عليه السلام تحدى بالكلمات والأسماء، قال تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ البقرة ٣١، وسيدنا ومولانا محمد ﷺ إنما تحدى بالمنظوم، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ الإسراء ٨٨.

٣ وأما سيدنا نوح عليه السلام فإن الله أكرمه بأن أمسك سفينته على الماء، وفى حق سيدنا محمد ﷺ وقف الحجر على الماء، فقد روى أنه ﷺ كان على شاطئ ماء ومعه عكرمة بن أبى جهل فقال: إن كنت صادقاً فادع ذلك الحجر الذى هو فى الجانب فليسبح ولا يغرق، فأشار الرسول ﷺ إليه فانقلع الحجر من مكانه، وسبح حتى صار بين يديه ﷺ وشهد الحجر له عليه الصلاة والسلام بالرسالة، فقال له ﷺ: (يكفيك هذا؟)، قال: حتى يرجع إلى مكانه، فأمره النبى ﷺ فرجع إلى مكانه.

٤ وأكرم سيدنا إبراهيم عليه السلام فجعل النار برداً وسلاماً عليه، وروى محمد ابن حاطب قال: كنت طفلاً فانصب القدر من على النار علىَّ فاحترق جلدى كله، فحملتنى أمى إلى

النبى ﷺ، وقالت: هذا ابن حاطب احترق كما ترى، فتفل رسول الله ﷺ فى جلدى ومسح بيده على المحترق، وقال ﷺ: (أَذْهِب اَلْبَأسَ رَبّ ٱلنّاسِ)، فصرت صحيحاً لا بأس بى.

٥ وأكرم سيدنا موسى عليه السلام بفلق البحر فى الأرض، وأكرم سيدنا ومولانا محمداً ﷺ، ففلق له القمر فوق السماء.

٦ وفجر لسيدنا موسى عليه السلام عيون الماء من الحجر، وفجر لسيدنا محمد ﷺ أصابعه عيوناً.

٧ وأكرم سيدنا موسى عليه السلام بتظليل الغمام فى زمن نبوته، وأكرم سيدنا محمداً ﷺ بذلك قبل ظهور نبوته.

٨ وأكرم سيدنا موسى عليه السلام باليد البيضاء، وأكرم سيدنا ومولانا محمداً ﷺ بالقرآن العظيم، الذى هو نور من الله وبرهان.

٩ وقلب الله عصا سيدنا موسى ثعباناً، ولما أراد أبو جهل أن يرميه ﷺ بالحجر رأى على كتفيه ﷺ ثعبانين فانصرف مرعوباً.

١٠ وسبحت الجبال مع سيدنا داود عليه السلام، وسبحت الأحجار فى يده عليه الصلاة والسلام، ويد أصحابه رضوان الله عنهم.

١١ وكان سيدنا داود عليه السلام إذا مسح الحديد لان، وكان ﷺ حين مسح الشاة الجدباء درت.

١٢ وأكرم سيدنا داود عليه السلام بالطير المحشورة، وأكرم سيدنا ومولانا محمداً ﷺ بالبراق.

١٣ وأكرم سيدنا عيسى عليه السلام بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وأكرمه عليه الصلاة والسلام بإحياء الشاة المسمومة وبتكلمها أنها مسمومة. روى جابر أن يهودية من أهل خيبر سمت ذراع شاة، ثم أهدتها إلى رسول الله ﷺ، فأخذ رسول الله ﷺ الذراع

فأكل منها، وأكل رهط من أصحابه معه، فقال رسول الله ﷺ: (ارْفَعُوا أيْدِيكُمْ)، وأرسل إلى اليهودية فدعاها، فقال: (سَمَمْتِ هَذِهِ الشّاة)، فقالت: من أخبرك؟ قال: (أخْبَرَتْنِى هَذِهِ فِى يَدِى) يعنى الذراع، قالت: نعم، قلت إن كان نبياً فلن تضره، وإن كان غير نبى استرحنا منه، فعفا عنها رسول الله ﷺ ولم يعاقبها.

وروى أن معاذ بن عفراء كانت له امرأة برصاء، فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ، فمسح عليها بغصن فأذهب الله عنها البرص.

وحين سقطت حدقة قتادة، أى عين قتادة، يوم أحد رفعها رسول الله ﷺ فردها إلى مكانها.

١٤ وكان سيدنا عيسى عليه السلام يخبر بما فى بيوت الناس، والرسول ﷺ عرف ما أخفته أم الفضل فأسلم العباس لذلك، روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لسيدنا العباس رضي الله عنه حين أسر فى أسارى بدر، وطلب النبى ﷺ منه فداء نفسه وابن أخيه عقيل بن أبى طالب فادعى العباس العجز عن الفداء، فقال له ﷺ: (أين المال الذى وضعت بمكة عند أم الفضل وليس معكما أحد، وقلت: إن أصبت فلعبد الله كذا، وللفضل كذا) فقال العباس: ما علم أحد غيرى، والذى بعثك بالحق إنك رسول الله، وأسلم هو وعقيل رضى الله عنهما.

١٥ ورد لسيدنا سليمان الشمس مرة، والرسول ﷺ كان نائماً ورأسه فى حجر علىّ عليه السلام، فانتبه وقد غربت الشمس فردها الله له حتى صلى رسول الله ﷺ.

١٦ وعلم سيدنا سليمان منطق الطير، وفعل ذلك فى حق سيدنا محمد ﷺ، روى أن طائراً فجع بولده، فجعل يرفرف على رأسه ويكلمه، فقال: (أيكم فجع هذه بولدها؟ فقال رجل: أنا، فقال: اردد ولدها)، وكلام الذئب والناقة معه ﷺ مشهور.

١٧ وأكرم سيدنا سليمان عليه السلام بمسير شهر فى غدوه ورواحه، وأكرمه ﷺ بالإسراء إلى بيت المقدس فى ساعة.

١٨ وكان له ﷺ يعفور (حمار) يرسله ﷺ إلى من يريد عليه الصلاة والسلام ليجئ عليه.

١٩ وأرسل معاذاً إلى بعض النواحى، فلما وصل المفازة فإذا أسد جاث فهاله ذلك ولم يجرأ أن يرجع، فتقدم وقال: (إنى رسول رسول الله ﷺ)، فبصبص السبع وانصرف.

٢٠ وكما انقاد الجن لسيدنا سليمان عليه السلام، انقادوا لسيدنا ومولانا محمد ﷺ.

٢١ وحين جاء الأعرابى بالضب تكلم الضب معترفاً برسالته، فقد روى أن رسول الله ﷺ خرج ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما بمكة، وكان أبو لهب وأبو جهل وأبو سفيان يمشون خارج مكة، فأقبل أعرابى من البادية فقال له أحدهم: إن قتلت هذا يعنى محمداً ﷺ أعطيناك كذا من كذا. والأعرابى جاء بضب يبيعه فقال: إنى أتيت البادية جائعاً، فأقبل على رسول الله ﷺ فلما دنا منه كان تحت ثوبه ضب فألقاه على الأرض وقال: إن لم يشهد لك هذا الضب قتلتك يا محمد، فقال سيدنا عمر: دعنى أقتله يا رسول الله، فقال: (دعه يا عمر، فقال: يا ضب من أنا؟ فقال: أنت رسول الله) فأسلم الأعرابى وحسن إسلامه والجماعة ينتظرون رأس رسول الله على سيف الأعرابى، فرجع إليهم يرفع صوته بكلمة التوحيد، فقالوا: سحره محمد.

٢٢ وحين كفل ﷺ الظبية حتى أرسلها الأعرابى، رجعت تعدو حتى أخرجته من الكفالة، فإنه قد روى أن رسول الله ﷺ مر بظبية مقيدة خارج خباء أعرابى، فلما قرب منها ﷺ التفتت إليه ﷺ ورفعت صوتها، فقال رسول الله ﷺ: (من الذى ربطها؟) فخرج الأعرابى وقال: هى صيدى يا محمد، قال: (إن لها أولاداً وإنها تتشفع بى أن تحلها لترضع أولادها وتعود إليك)، فقال: يا محمد أحلها وتخرج من قيدها وتعود على؟ فقال: (نعم، وأنا ضامن لك ذلك). وكان ثدياها ممتلئتين لبناً، فقام الأعرابى وحلها فانصرفت ومكثت زمناً طويلاً فرجعت ولبنها فارغ، ووقفت بجوار الأعرابى كأنها تقول له: اربطنى.

٢٣ وحين لسعت الحية عقب الصديق فى الغار، قالت: كنت مشتاقة إليه مذ كذا سنين فلم حجبتنى عنه؟

٢٤ وأطعم الخلق الكثير من الطعام القليل.

ومعجزاته ﷺ أكثر من أن تحصى خصوصاً فى هذا المقام، فثبت صحة قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ الكوثر١.

جمعه للمعارف والعلوم

من معجزاته ﷺ الباهرة ما جمعه الله له من المعارف والعلوم، وما خصه به من الاطلاع على جميع مصالح الدنيا والدين، ومعرفته ﷺ بأمور شرائعه وقوانين دينه ومصالح أمته، وما كان فى الأمم قبله، وقصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، والجبابرة والقرون الماضية من لدن سيدنا آدم عليه السلام إلى زمنه ﷺ، وحفظ شرائعهم وكتبهم ووعى سيرهم وسرد أنبائهم وأيام الله فيهم، وصفات أعيانهم واختلاف آرائهم، والمعرفة بمددهم وأعمارهم، وحكمة حكمائهم، وإقناع كل أمة من الكفرة، ومعارضة كل فرقة من الكتابيين بما فى كتبهم، وإعلامهم بأسرارها ومخبآت علومها، وإخبارهم بما كتموه من ذلك وغيروه مع البيان لكل قبيلة بلغاتها وغريب ألفاظ فرقها، والإحاطة بضروب فصاحتها، والحفظ لأيامها وأمثالها، ومعانى أشعارها وجوامع كلمها.

إلى المعرفة بضرب الأمثال الصحيحة لتقريب التفهيم للغامض والتبيين للمشكل، إلى تمهيد قواعد الشرع الذى لا تناقض فيه ولا تخاذل، مع اشتمال شريعته ﷺ على محاسن الأخلاق ومحامد الآداب، وكل شئ مستحسن مفضل، لم ينكر منه ملحد ذو عقل سليم شيئاً إلا من جهة الخذلان، بل كل جاحد له وكافر من الجاهلية به إذا سمع ما يدعو إليه صوبه واستحسنه دون طلب إقامة برهان عليه، ثم ما أحل لهم من الطيبات، وحرم عليهم من الخبائث، وصان به أنفسهم وأعراضهم وأموالهم من المعاقبات والحدود عاجلاً، والتخويف بالنار آجلاً، مما لا يعلم ولا يقوم به ولا ببعضه إلا من مارس الدرس والعكوف على الكتب ومتابعة بعض هذا، إلى الاحتواء على ضروب العلوم وفنون المعارف كالطب والعبادة والفرائض والحساب والنسب.

وغير ذلك من العلوم مما اتخذ أهل هذه المعارف كلامه عليه الصلاة والسلام فيها قدوة وأصولاً فى علمهم، كقوله عليه الصلاة والسلام: (الرُّؤْيَا لأَوَلِ عَابِرٍ وَهِىَ عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ). وقوله: (الرُّؤْيَا ثَلاَثٌ: رُؤْيَا حَقّ، وَرُؤْيَا يُحَدّثُ بهَا الرّجُلُ نَفْسَهُ، وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشّيْطَانِ) وقوله: (إذَا تَقَارَبَ الزّمَانُ لَمْ تَكدْ رُؤْيَا الْمُؤْمِن تَكْذب) وقوله: (أَصْلُ كُلّ دَاءِ البَرْدَةُ) وقوله: (خَيْرُ مَا تَدَاويتم به السّعُوطُ واللّدُودُ والحِجَامَةُ والمشى، وخيرُ الحجامة يومُ سبعة عشر وتسعة عشر وواحد وعشرين، وفى العود الهندى سبعة أشفية) وقوله: (مَا مَلأ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرّا عَلَيه مِنْ بَطْنِهِ)، إلى قوله: (فَإن كَانَ لاَبُدّ فَثُلُثٌ لِلطّعَامِ وَثُلُثٌ لِلشّرَابِ وَثُلُثٌ لِلنّفسِ) وقوله وقد سئل عن سباء أرجل هو أم امرأة أم أرض؟ فقال: (رَجُلٌ وَلَدَ عَشرَةً تَيَامنَ مَنْهُمْ سِتّةٌ، وتَشَاءَمَ أَرْبَعَةٌ) الحديث بطوله.

وكذلك جوابه فى نسب قضاعة، وغير ذلك مما اضطرت العرب على شغلها بالنسب إلى سؤاله عما اختلفوا فيه، من ذلك قوله: (حِمْيَر رَأْسُ الْعَرَبِ وَنَابُهَا، ومذحج هَامتها وقلصتها، والأزد كَاهِلُهَا وجمجمتها، وهمدان غَارِبُهَا وَذِرْوَتُهَا) وقوله: (إنّ الزّمَانَ قَد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِه يَوم خَلَقَ اللهّ السَمَاوَاتِ والأَرْضَ) وقوله فى الحوض: (زَوَايَاهُ سواءٌ) وقوله فى حديث الذكر: (وَأَنّ الْحَسَنَةَ بعشرِ فَتِلْكَ مائَةٌ وَخَمْسُونَ عَلَى اللسَانِ وَأَلْفٌ وَخَمْسمائة فِى الْميزَانِ) وقوله: (مَابَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ) وقوله لعيينة أو الأقرع: (أَنَا أَفْرَسُ بِالْخَيْلِ مِنكَ).

وقوله لكاتبه: (ضَع الْقَلَم عَلَى أُذُنِكَ فَإنّهُ أَذْكَرُ لِلمملى) هذا مع أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يكتب ولكنه أوتى علم كل شئ، حتى قد وردت آثار بمعرفته حروف الخط وحسن إتقان تصويرها، كقوله ﷺ: (لاَ تَمُدّوا بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ).

وروى أنه قال لمن يكتب بين يديه عليه الصلاة والسلام: (ألق الدواةَ وحرف القلمَ، وأقِم الباءَ، وَفَرق السينَ، ولا تعور الميم، وَحَسّن الله، وأمِدّ الرحمنَ، وجَوّد الرحيمَ)، وهذا وإن لم تصح الرواية أنه كتب عليه الصلاة والسلام، فلا يبعد أن يرزق علم هذا ويمنع الكتابة والقراءة.

وأما علمه عليه الصلاة والسلام بلغات العرب وحفظ معانى أشعارها فأمر مشهور،

وكذلك حفظه عليه الصلاة والسلام لكثير من لغات الأمم كقوله فى الحديث: (سنه) وهى حسنة بالحبشية، وقوله: (ويكثر الهرج) وهو القتل بها، وقوله: (اشْكنب دردم أى: وجع البطن بالفارسية، إلى غير ذلك مما لا يعلم بعض هذا ولا يقوم به ولا ببعضه إلا من مارس الدرس والعكوف على الكتب ومثاقبة أهلها عمره، وهو رجل كما قال الله تعالى أُمى لم يكتب ولم يقرأ، ولا عرف بصحبة من هذه صفته، ولا نشأ ﷺ بين قوم لهم علم ولا قراءة لشئ من هذه الأمور، ولا عرف هو قبل بشئ منها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ العنكبوت ٤٨، الآية.

إنما كانت غاية معارف العرب النسب، وأخبار أوائلها، والشعر والبيان، وإنما حصل لهم ذلك بعد التفرغ لعلم ذلك، والاشتغال بطلبه، ومباحثة أهله عنه، وهذا الفن نقطة من بحر علمه ﷺ، ولا سبيل إلى جحد الملحد لشئ مما ذكرناه، وما وجد الكفرة حيلة فى دفع ما نصصناه إلا قولهم: أساطير الأولين، وإنما يعلمه بشر، فرد الله تعالى قولهم بقوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ النحل ١٠٣.

من خصائصه وكراماته وباهر آياته

من خصائصه ﷺ وكراماته وباهر آياته أنباؤه مع الملائكة والجن، وإمداد الله له بالملائكة وطاعة الجن له، ورؤية كثير من أصحابه لهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ التحريم ٤، وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ الأنفال ١٢، وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ الأنفال ٩.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ الأحقاف ٢٩-٣٢، فقد روى عن عبد الله أنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ

ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ النجم ١٨، قال: رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح، والخبر فى محادثته مع جبريل وإسرافيل وغيرهما من الملائكة وما شاهده من كثرتهم وعظم صور بعضهم ليلة الإسراء مشهور وقد رآهم ﷺ بحضرة جماعة من أصحابه فى مواطن مختلفة، فرأى أصحابه جبريل عليه السلام فى صورة رجل يسأله عن الإيمان والإسلام، ورأى سيدنا ابن عباس وأسامة وغيرهما رضوان الله عليهم عنده ﷺ جبريل فى صورة دحية.

وذكر ابن سعد أن مصعب بن عمير قتل يوم أحد وأخذ الراية مَلَك على صورته فكان النبى ﷺ يقول: (تَقَدَّمْ يَا مُصْعَب) فقال الملَك: لستُ بمصعب، فعلم أنه ملك. ورأى سعد على يمينه وعلى يساره جبريل وميكائيل فى صورة رجلين عليهما ثياب بيض. ومثله عن غير واحد، وسمع بعضهم زجر الملائكة خيلها يوم بدر، وبعضهم رأى تطاير الرؤوس من الكفار ولم يروا الضارب.

ورأى سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الجن ليلة الجن وسمع كلامهم، وقد ذكر غير واحد من العلماء عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: بينما نحن جلوس مع النبى ﷺ إذ أقبل شيخ بيده عصا، فسلم على النبى ﷺ فرد عليه وقال: (نَغَمَةُ الْجِنّ، مَنْ أنتَ) قال: أنا هامة بن الهيمى ابن لاقس ابن إبليس، فذكر أنه لقى نوحاً عليه السلام ومن بعده فى حديث طويل، وأن النبى ﷺ علمه سوراً من القرآن، وقال عليه الصلاة والسلام: (إِنّ شَيْطَاناً تفلت البارحة ليقطعَ عَلَيّ صلاتى فأمكننى اللهُ منه فأخذتُهُ فأردتُ أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرتُ دعوة أخى سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ ص ٣٥.

معجزات الرسل هى بعض ما أمد به خاتم الأنبياء

ثبت أن كل ما أمد الله به رسله عليهم الصلاة والسلام من المعجزات إنما هو بعض ما أمد به سبحانه خاتم رسله عليه أكمل الصلاة وأتم التسليم، وكيف لا... وكل معجزة أمد الله بها من سبق من رسله صلوات الله وسلامه عليهم كانت خاصة لقومه وأهل عصره لا تتجاوزهم إلى غيرهم، وذلك لأن تلك المعجزات كانت خوارق للعادات الكونية والعلوم الإنسانية،

كعلم الطب وعلم السحر وعلم السير فى البحار، وعدم تأثير العناصر النارية على الأجسام الإنسانية، وغير ذلك من الخوارق التى تدهش العقول وتحير الألباب، وتخرج قوة الفكر عن النمط الأوسط، حتى يتصور الناظر إلى تلك الحادثة أن الذى أحدثها من الآلهة لحيرة فكره، ثم إذا مرت عليها لحظات قليلة تناساها الناظر لها، وصارت فى حيز كان، اللهم إلا ما يثبته التاريخ وتنقله الرواة بشرح تلك الحادثة، مشوبة بما يجعل السامع لروايتها بين منكر متعجب، أو مسلّم معجب بمن ظهرت على يده، غير ملاحظ الحكمة التى أظهرها الله لأجلها.

ولذلك كانوا صلوات الله وسلامه عليهم كالأنجم التى تضئ ليلاً، حتى إذا أشرقت شمس ذات الرسول الكريم العظيم ﷺ الفاتح لما أغلق من سر الإيجاد والإمداد، والخاتم لما سبق من أنوار الرسالة والهداية والبيان صلوات الله وسلامه عليه، حُجبت تلك الأنجم بأنوارها التى عمت الروابى والبطاح، واهتدى بها الإنس والجن، فأكمل الله به ﷺ دينه الذى ارتضاه، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ المائدة ٣، وصار كل رسول من أولى العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام لو أدركوا جنابه المحمدى عليه الصلاة والسلام ما وسعهم إلا أن يكونوا له أتباعاً وأنصاراً، لتلك الحكم الجلية، التى لا تخفى إلا على بصيرة أعماها الحظ والهوى، وقلب قطعه الحق عن مشاهد أنواره، ونفس خبيثة إبليسية.

جعل الله معجزة هذا السيد ﷺ باقية أبد الآبدين، غضة طريفة لا تفنى جدتها، ولا تزول بهجتها، كلما مر زمن الأزمان ظهرت أسرارها، وانبلجت غيوبها، وانكشفت أنوارها، وفتحت كنوزها، وأشرقت فى الأفق المبين شموسها، فما ظهر للطب سر غامض إلا وقد صرح القرآن المجيد به، ولا انكشف سر من أسرار غوامض الماديات من الحكم العلية من الآلات والأدوات إلا وقد أخبر به القرآن المجيد، ولا جالت العقول الكاملة جولة فى أقطار السماوات والأرض إلا ونور القرآن المجيد شمس بيانها وحقيقة دليلها، حتى أن المخترعات التى أدهشت عقول العقلاء قد أخبر عنها القرآن: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ

وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ النحل ٣-٨، وقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ الحديد ٢٥، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ فصلت ٥٢-٥٣، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ يونس ١٠١، وآيات لا تحصى.

ما هذه المعجزة الباقية أبد الآبدين ودهر الداهرين؟! وما تلك الآية المؤثرة التى لا تحجب صورتها الكاملة الجميلة عن الأبصار؟! ولا حقيقتها الجليلة الجلية عن البصائر؟!

هى كتاب الله تعالى الذى أنزله على نبيه تفصيلاً لكل شئ، حتى قال أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه: (لَوْ ضَاعَ مِنِّى عِقَالُ بَعِيرٍ لرأيتُهُ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى) هذا هو المعجزة حقاً، والرحمة العظمى صدقاً، ونعمة الله الكبرى على جميع خلقه.

من أعظم معجزاته ﷺ القرآن المجيد

لأن الله تعالى أنزله مشتملاً على أخبار الأمم السالفة، وسير الأنبياء الماضية التى عرفها أهل الكتاب، وهو ﷺ أمى لا يقرأ ولا يكتب، لأنه ﷺ نشأ فى بلد ليس بها عالم يعرف أخبار القرون الماضية، والأمم السالفة التى اشتمل عليها القرآن الكريم، ومن كان من العرب يقرأ ويكتب ويجالس الأحبار لم يدرك علم ما أخبر به القرآن، خصوصاً عن المغيبات المستقبلية الدالة على صدقه لوقوعها على ما أخبر به عليه الصلاة والسلام.

وقد أعجز البلغاء لحسن تأليفه والتئام كلماته، بهرت العقول بلاغته، وظهرت على كل قول فصاحته، أحكمت آياته وفصلت كلماته، فحارت فيه عقولهم وتبلدت فيه أحلامهم، وهم رجال النظم والنثر، وفرسان السجع والشعر، وقد جاء على وصف مباين لأوصاف كلامهم

النثر، لأن نظمه لم يكن كنظم الرسائل والخطب، ولا أشعار وأسجاع الكهان، وقد تحداهم ودعاهم لمعارضته، والإتيان بأقصر منه، وهو دليل قاطع على أنه ﷺ لم يقل لهم ذلك إلا وهو واثق موقن أنهم لا يستطيعون ذلك لكونه من عند الله سبحانه، إذ يستحيل أن يقول ﷺ ذلك وهو يعلم أنه هو الذى تولى نظمه، ولم ينزل عليه من عند الله جل جلاله، إذ لا يأمن ﷺ أن يكون فى قومه من يعارضه وهم أهل فصاحة وخطابة، قد بلغوا الدرجة العليا فى البلاغة، وهو من جنس كلامهم فيصير كذاباً، ولو كان فى استطاعة أحد منهم ذلك لما عدلوا عن ذلك إلى المحاربة، التى فيها قتل صناديدهم ونهب أموالهم وسبى ذراريهم، لأن النفوس إذا قرعت لمثل هذا استفرغت الوسع فى المعارضة خلافاً لمن قال: إنما لم تقع المعارضة منهم لأن الله تعالى صرفهم عنها مع وجود قدرتهم عليها، لأنه وإن كان صرفهم عنها فيه إعجاز لكن الإعجاز فى الأول أكمل وأتم وهو اللائق بعظيم فضل القرآن.

وعلى مذهب من قال بالصرفة وأن المعارضة كانت فى مقدور البشر فصرفوا عنها، أو أن الإتيان بمثله من جنس مقدورهم ولكنه لم يكن ذلك قبل ولا يكون بعد لأن الله تعالى لم يقدرهم ولا يقدرهم عليها، وبين المذهبين فرق بين، وعليهما جميعاً، فترك العرب الإتيان بما فى مقدورهم أو ما هو من جنس مقدورهم ورضاهم بالبلاء والجلاء والسباء والإذلال وتغيير الحال وسلب النفوس والأموال، والتقريع والتوبيخ والتعجيز والتهديد والوعيد، أبين آية للعجز عن الإتيان بمثله، والنكول عن معارضته، وأنهم منعوا من شئ هو من جنس مقدورهم، عندنا أبلغ فى خرق العادة من كل معجزة أتى بها الرسل السابقون صلوات الله عليه وعليهم.

لأن كل معجزة يمكن للعقل أن يرى لها نظائر فى الكون كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وخلق الطير من الطين، فإنا نرى فى الكون من يعمى ثم يبصر، ومن يصاب بالمرض العضال ثم يشفيه الله بلا دواء أو على يد غير مؤمن، وترى أكثر الحيوانات يتولد من الطين فيكون قطعة طين ويصبح حيواناً كالجرذان (نوع من الفئران) ويكون كقطعة جلد بالية ويصبح حيواناً كالضفادع، وقد يقوم الميت بعد موته، وذلك شئ لا ينكره عاقل لكل معجزة من المعجزات التى أجراها الله على يد رسله صلوات الله وسلامه عليهم، يمكن

للعقل الذى لم يرد الله أن يشهده أنوار الإيمان ولا دلائل النبوات أن يتأول كل معجزة منها، لأنها حادثة جزئية قد يحصل فى الوجود العينى أمثالها عقلاً.

ولكن عجز الأمة العربية بأجمعها عن الإتيان بأقصر من القرآن مع أنهم فحول الفصاحة وشموس البيان، وأبطال السحر الحلال، حتى بلغ بهم العجز إلى أن بذلوا دماءهم وأموالهم وأعراضهم فى عداوته ﷺ، مع أنه كان يكفيهم لو استطاعوا أن يأتوا بمثل أقصر سورة وينالوا بذلك العز والشرف والمجد والسيادة، فأمة عجزت عن الإتيان بمثل ما هم أهله ورجاله وفحوله، وعدلت عنه إلى الإلقاء بأنفسهم على ظبى السيوف لآية جلية على أن المعجزة بعجزهم عن الإتيان بمثل أقصر منه.

العجز عن الإتيان بمثل أقصر سورة

دليل عجزهم أنه لما جاء الوليد بن المغيرة وكان يقال له: ريحانة قريش، وقال لرسول الله ﷺ: اقرأ علىَّ، فقرأ ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ النحل ٩٠ الآية، وقال له: أعِدْه، فأعاد ذلك، فقال: والله إن له لحلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما هو بقول بشر وإنه ليعلو ولا يعلى عليه.

وفى رواية قرأ قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ غافر ١-٣ الآيات، فانطلق حتى أتى منزل أهله بنى مخزوم فقال: والله كلام محمد ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن إلى آخر ما تقدم، ثم انصرف إلى منزل له.

فقالت قريش: قد صبأ الوليد، والله لتصبأن قريش كلها، فقال أبو جهل: إنى أكفيكموه، فقعد على هيئة الحزين فمر به الوليد فقال له: ما لى أراك كئيباً؟ قال: وما يمنعنى أن أحزن وهذه قريش قد جمعوا لك نفقة ليعينوك على أمرك، وزعموا أنك إنما زينت قول محمد لتصيب من فضل طعامه، فغضب الوليد وقال: أو ليس قد علمت قريش أنى من أكثرهم مالاً وولداً، وهل يشبع محمد وأصحابه من الطعام؟ فانطلق مع أبى جهل حتى أتى مجلس بنى مخزوم

فقال: هل تزعمون أن محمداً كذاب فهل رأيتموه كذبكم قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: فتزعمون أنه مجنون فهل رأيتموه خرفكم؟ أى أتى بالخرافات من القول، قالوا: لا، قال: تزعمون أنه كاهن فهل سمعتموه يخبر بما تخبر به الكهنة؟ قالوا: لا، فعند ذلك قالت له قريش: فما هو يا أبا المغيرة؟ فقال: إن هذا إلا سحر يؤثر.

ولما أراد بعضهم معارضة بعض سوره وقد أوتى من الفصاحة والبلاغة الحظ الأوفى فسمع صبياً يقرأ فى المكتب قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ هود ٤٤ الآية، رجع عن المعارضة، ومحا ما كتبه وقال: والله ما هذا من كلام البشر.

هذا وكل جملة من القرآن معجزة، وقد حفظ من التبديل والتحريف على مر الدهور، وقارئه لا يمله، وسامعه لا يمجه، بل لا يزال مع تكريره وترديده غضاً طرياً تتزايد حلاوته، وتتعاظم محبته، وغيره من الكلام ولو بلغ الغاية يُمل مع التردد ويُعادى إذا أعيد.

والقرآن العظيم يؤنس به فى الخلوات، ويستراح بتلاوته من شدائد الأزمات، واشتمل على جميع ما اشتملت عليه جميع الكتب الإلهية وزيادة، وليس بين كل إنسان وبين أن يكاشف بأنوار القرآن الجلية إلا أن يتجرد من تشيعه لعادات قومه، مما لصق بجوهر نفسه من كثائف ظلمات الأباطيل، ويرجع إلى إنسانيته الأولى قبل أن تلم بعقله ظلمات العقائد المضلة، ودخان العوائد المهلكة، ثم يتلوه بعد أن يكون قد علم مبادئ ضوابط اللغة العربية.

فإنى على يقين أنه إذا قرأه بعد هذا لا يسعه إلا أن يسجد شكراً لله على ما أنعم به عليه من نور الهداية والبيان، مع يقينى أن هذا النور لا يمسه إلا المطهرون الذين سبقت لهم الحسنى من الله، ولا عبرة عند أهل العقل بمن انحطت هممهم الإنسانية حتى صاروا أقل من البهائم الراتعة، وأشر من الشياطين المردة: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ النور ٤٠، أسأل الله تعالى أن يزكى نفوسنا، إنه مجيب الدعاء.

* * *

القرآن الكريم دعوة وحجة

ومن أعظم قدر القرآن أن الله تعالى خصه بأنه دعوة وحجة، ولم يكن هذا لنبى قط، إنما يكون لكل منهم عليهم الصلاة والسلام دعوة، ثم يكون له حجة غيرها، وقد جمعها الله تعالى لرسوله ﷺ فى القرآن فهو دعوة بمعانيه، حجة بألفاظه، وكفى الدعوة شرفاً أن تكون حجتها معها، وكفى حجتها شرفاً أن لا تنفصل عنها، وقد يسره الله سبحانه للحفظ.

والقرآن الكريم لا تنقضى عجائبه، ولا تشبع منه العلماء، ولا تزيغ به الأهواء، وقد تقدم لنا فى كتاب "شراب الأرواح" ما لفظه:

(القرآن الشريف النجاة من الهول فى الدنيا والآخرة، والحظوة بالحسنى فى الدنيا والآخرة، والقرب من الله سبحانه وتعالى ومن رسوله ﷺ فى الدنيا والآخرة أن تحل حلال القرآن قولاً وعملاً، وأن تحرم حرامه قولاً وعملاً، فهو الإمام الحق، والنور الذى لا تشوبه ظلمة، وحبل الله تعالى الذى هو ممسوك بيمينه، من تمسك به وصله الله، بين رسول الله ﷺ بقوله وعمله وحاله أسرار القرآن، وكشف أنواره، ووضح مناهجه).

(القرآن القرآن إخوانى: موتوا به، واحيوا به، وناموا به، وتاجروا به، واعملوا به، وأطيعوا ربكم سبحانه به، وكلوا به، واشربوا به، وازرعوا به، أى لا تعملوا عملاً حتى يظهر لكم من القرآن الشريف حكمه، فإن أحل فاعملوا، وإن حظر فامتنعوا.القرآن الشريف حجة الله تعالى وحجة خلقه، فمن كان القرآن حجة له رضى الله عنه وأرضاه، ومن كان حجة عليه سخط الله عليه وأقصاه.القرآن اقرءوه بلسان الفكرة، وعين العبرة، وهمة الاتباع، وعزيمة العمل به، القرآن نجا به من فهمه عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ، وهلك من فهمه بعلومه العقلية وأفكاره الدنيوية وحظوظه النفسانية.القرآن كلام الله تعالى ووصفه وأخلاقه وكمالاته وجمالاته وجلاله. القرآن ذات وأحكام، وأوصاف وأسماء، وعبرة وتنزل، ورموز وأسرار، ومحكم ومتشابه. اقرأوا القرآن لله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ الرحمن ١-٢، وصلى الله وسلم على من كان خلقه القرآن، وعلى آله وورثته والتابعين).

العصمة

هى ملكة نفسانية تمنع صاحبها من الفجور، وتتوقف على العلم بمثالب المعاصى، ومناقب الطاعات. اعلم أن الهيئة النفسانية إن لم تكن راسخة سُميت: حالاً، وإن كانت راسخة سُميت: مَلَكة. والهيئة النفسانية التى تمنع صاحبها عن الفجور الذى هو ارتكاب المعاصى واجتناب الطاعات، إنما تصير ملكة بأن يعلم صاحبها مثالب المعاصى، أى معايبها، ومناقب الطاعات، لأن الهيئة المانعة من الفجور إذا تحققت فى النفس وعلم صاحبها ما يترتب على المعاصى من المضار وعلى الطاعات من المنافع تصير راسخة، لأنه إذا علم مثالب المعاصى ومناقب الطاعات يرغب فى الطاعات، ويرغب عن المعاصى، فيطيع ولا يعصى فتصير هذه الهيئة راسخة.

وتتأكد هذه المَلَكة فى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بتتابع الوحى على تذكر ذلك العلم. والاعتراض على ما يصدر عنهم سهواً، والعتاب على ترك الأولى، فإنه متى صدر عنهم شئ سهواً أو تركوا ما هو الأولى لم يترك مهملاً، بل يعاتبون أو ينبهون عليه، ويضيق الأمر فيه عليهم بتأكيد تلك الملكة بعد الوحى وقبل الوحى، فالأكثرون من العلماء منعوا جواز الكفر وإفشاء الكذب والإصرار على الذنب لئلاً يزول عن النبى الثقة بالكلية، وجوزوا صدور المعصية على سبيل الندور. وبعضهم أوجبوا العصمة مطلقاً قبل البعثة وبعدها، خلافاً للفضيلية (من الخوارج) فإنهم جوزوا على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم المعاصى، واعتقدوا أن كل معصية كفر فجوزوا على الأنبياء الكفر. ومن الناس من لم يجوز الكفر ولكن جوز إظهار الكفر تقية، بل أوجبوه، لأن إظهار الإسلام إذا كان مفضياً إلى القتل كان الفناء للنفس فى التهلكة وإلقاء النفس فى التهلكة حرام لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ البقرة ١٩٥، وإذا كان إظهار الإسلام حراماً كان إظهار الكفر واجباً.

ومنع بأنه لو جاز إظهار الكفر تقية لكان أولى الأوقات به وقت ظهور الدعوة، لأن الناس فى ذلك الوقت بالكلية منكرون له، وكان لا يجوز إظهار الدعوة لأحد من الأنبياء، فيؤدى إلى إخفاء الدين بالكلية. والحشوية لم يجوزوا الكفر ولا إظهاره وجوزوا الإقدام على

الكبائر. وقوم منعوا أن تتعمد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الكبيرة، وجوزوا تعمد الصغائر.

العصمة للأنبياء بعد الوحى والعناية قبله

العصمة واجبة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعد الوحى، وإن كانوا صلوات الله وسلامه عليهم تلاحظهم عين العناية قبل الوحى ملاحظة تجعلهم عليهم الصلاة والسلام مجملين بأكمل الأخلاق، خصوصاً سيدنا ومولانا محمداً ﷺ الذى تولاه الله تعالى بولايته الخاصة الإلهية، فكان ﷺ من مولده الشريف عليه الصلاة والسلام وهو حقيقة الكمالات الأخلاقية الطاهرة، مجملاً بأجمل معانى الجمالات الروحانية من الصدق والأمانة والرحمة والصلة والوفاء والكرم والشجاعة والحلم والإخلاص فى عبادة الله سبحانه قبل النبوة، فكان ﷺ يتعبد فى غار حراء.

فما من رسول من الرسل عليهم الصلاة والسلام إلا وكانت عصمته بعد النبوة، ولا يخلو قبل النبوة من حصول بعض المعاصى، أو حصول بعض الصغائر سهواً، ولكن سيدنا ومولانا محمداً ﷺ حفظه الله بعنايته قبل النبوة، وعصمه بعدها عليه الصلاة والسلام. ومن قرأ سيرته ﷺ يعلم حق العلم أنه صلوات الله وسلامه عليه رحمة الله العامة ونعمته العظمى، وسيد رسله على الإطلاق، وإمامهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ووجوب العصمة لهم صلوات الله وسلامه عليهم لأنهم لو صدر عنهم عليهم الصلاة والسلام ذنب لوجب اتباعهم فيه لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ الأعراف ١٥٨، ولانقلبت المعصية طاعة. وكيف لا تجب لهم العصمة؟ وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ الأحزاب ٣٠، فإذا كانت زوجة النبى ﷺ يضاعف لها العذاب من المعصية فكيف لا يكون النبى ﷺ معصوماً؟ والذنب ظلم وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البقرة ١٢٤، والعهد: الأمانة، والنبوة أولى.

وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ التوبة ٤٣، وقوله سبحانه: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ

ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الفتح ٢، وما أشبهها، فذلك لأنه ﷺ رحمة الله العامة للناس، فكان صلوات الله وسلامه عليه لإشفاقه على الناس يحب صلوات الله وسلامه عليه أن يتألفهم استجلاباً لإقبالهم على الله تعالى، والله هو الغنى عن عباده، فكان هذا كعمل الحسن وترك الأحسن، وهو فى الحقيقة بالنسبة لمقام رحمته الواسعة ونجاة عباد الله من غضب الله ومقته هو الأحسن، وقد أثنى الله سبحانه وتعالى عليه ﷺ بهذه المعانى الدالة على أنه رحمة الله ﷺ بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم ٤، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران ١٥٩، فكل ما ورد من الآيات الدالات على العفو عنه والمغفرة له ﷺ إنما هو محمول على ما بينت لك، أما واقعة آدم عليه السلام فقبل النبوة، ولقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ طه ١٢٢، وهكذا كل ما حصل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فمحمول على أنه قبل النبوة، أو على مقصد خاص يظهر سره لمن ذاق حلاوة الإيمان.

وإذا تقرر ذلك ثبت أن العصمة واجبة لرسل الله عليهم الصلاة والسلام، وإن خالفنا فى ذلك من لا نأخذ بمذهبهم، فإن العصمة أساس الدين، وعليها تترتب كل معانى الرسالة، لأن الله تعالى قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ آل عمران ٣١، وإجماع الأمة على أن مخالفة النبى ﷺ بدعة مضلة، وأنه ﷺ واجب الاقتداء به، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ النجم ٣-٥، فهو ﷺ معصوم فى عمله كما هو معصوم فى قوله، كيف لا... وبعض أفراد أمته عليه الصلاة والسلام أخبر الله عنهم بقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأنعام ٨٢، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ الحجر ٤٢، وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الحجر ٤٠.

ولما كان هذا المختصر إنما وضع لبيان أن الإسلام دين ووطن ونسب، وأن تلك المعانى قد ثبت بيانها مستوفاة فى غير هذا المختصر من الكتب السالفة، اكتفيت بهذا النذر القليل، وقد بين الله تعالى أن المسلم قد يعتصم بالله تعالى فيكون معصوماً به سبحانه لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران ١٠١، وأمر الله سبحانه وتعالى المسلمين أن يعتصموا بحبل الله جميعاً، فقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ آل عمران ١٠٣، فإذا كان

المسلم يعتصم بحبل الله، فالرسل صلوات الله عليهم أحق وأولى بالعصمة بالله، بل هى لهم فضلاً من الله تعالى، ومن أنكرها هوى به الضلال إلى سحيق غضب الله تعالى، نعوذ بالله، فإن تصديق الله لهم بالمعجزة برهان على عصمتهم عليهم الصلاة والسلام.

الرسل عليهم الصلاة والسلام أفضل من الملائكة

الرسل عليهم الصلاة والسلام أفضل من الملائكة، وإن خالفنا فى ذلك الحكماء والمعتزلة، وأفضليتهم عليهم بدلائل أربعة:

الدليل الأول: أنه سبحانه وتعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، وهذا السجود سجود خدمة لا سجود عبادة، فلو لم يكن آدم عليه الصلاة والسلام أفضل من الملائكة لما أمرهم الله سبحانه وتعالى بالسجود له عليه الصلاة والسلام.

الدليل الثانى: أن سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام أعلم من الملائكة بدليل الآية الكريمة وهى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ البقرة ٣١-٣٣، فكان سيدنا آدم عليه السلام أفضل من الملائكة صلوات الله عليهم لقوله سبحانه: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الزمر ٩.

الدليل الثالث: أن طاعة البشر أشق من طاعة الملائكة، لأن البشر مجبولون على صوارف عن الطاعات وموانع عنها من الشهوة والغضب والوسوسة الداخلة والخارجة، وعبادة الملك فطرية، ولقوله عليه الصلاة والسلام: (أَفْضَلُ الطَّاعَاتِ أَشَقُّهَا).

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ آل عمران ٣٣، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل العالمين، والملائكة من العالمين.

* * *

الرد على من يقول بغير هذا

١ واحتج مخالفنا بقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ النساء ١٧٢، فبلاغة القرآن تقتضى الترقى، فكأن الملائكة أفضل من المسيح عليه السلام، والحقيقة أن النصارى ادعوا أن المسيح ابن الله، ففى ذلك من الفرية على الله تعالى ما فيه، وكان المقام مقام الحجة عليهم وبطلان الدعوة، فأثبت أن الأرواح المجردة التى ليس لها أب ولا أم عبيد الله تعالى لا يستنكفون عن عبادته، وكذلك المسيح عليه السلام الذى هو مولود من أم أحق أن يكون عبداً لله مخلوقاً له سبحانه كما خلق الأنبياء، وفى ذلك من قيام الحجة على بطلان دعواهم ما فيه لمن تدبر، لأنهم أخزاهم الله تعالى نسبوا المسيح إلى أنه ابن الله لأنه وُلد من غير والد، فأضلهم الشيطان وسول لهم أن كل مولود لابد أن يكون له والد، وعلى هذا فإما أن يكون ابن زنا وذلك مستحيل عادة وعقلاً لما أتى به من المعجزات الباهرة الدالة على أنه عليه السلام بار، لأن الله تعالى لا يستجيب للفاجر وقد استجاب الله له استجابته لأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، ولم يبق فى نظرهم لما زينه لهم الشيطان إلا أنه ابن الله تعالى جهلاً بعجائب قدرة القادر، وغرائب حكمة الحكيم سبحانه، فأقام الله عليهم الحجة البالغة القاصمة الفاصمة بقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ النساء ١٧٢.

فكأنه سبحانه يقول لمن ادعى بنوة عيسى عليه السلام لله سبحانه لأنه لا والد له، إنى خلقت أرواحاً مجردة بكلمة كُن من لا شئ وهم عباد لى مقهورون بقهرى مربوبون لى، بلا أب ولا أم لهم، ومن كان قادراً أن يخلق أرواحاً نورانية مجردة من لا شئ ويكونون عباداً أذلاء لعزته لا ينتسبون لذاته العلية بالبنوة، تنزه وتعالى عن أن ينتسب إليه سبحانه إنسان مولود من إنسانة بالبنوة، وإذا كان المسيح لأنه لا أب له يدعى المبطلون أنه ابن الله، فكان من الأولى الأرواح المجردة، بل آدم أولى لأنه لا أم له ولا أب من الإنسان، بل وحواء فإنها خلقت بلا أم ولا أب بمعنى الزوجية.

فالآية الشريفة ليست حُجة لمن يرى أفضلية الملائكة على الأنبياء، لأن سياقها تنزيه

الجناب العلى عن نسبة الولد لذاته العلية تقدست وتعالت، فكأن المعنى والله أعلم: إن المسيح الذى له أم وتدعون أنه ابن الله لا يستكبر أن يكون عبداً لله، بل ولا الأرواح المجردة الطاهرة النورانية الروحانية التى لم تخلق من أب وأم، لا يستكبرون أن يكونوا عبيداً لله سبحانه وتعالى أذلاء لعزته، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

٢ وما يراه مخالفنا دليلاً له من تقديم ذكر الملائكة قبل الأنبياء فى القرآن الشريف فإنه ليس من الحُجة البينة، إذ يجوز تقديمهم لسبق وجودهم.

٣ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ الأعراف ٢٠٦، لا يفيد تفضيلهم إلا على من يستكبرون عن عبادة الله من بنى آدم، وأما الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بل والصديقون أذلاء خاشعون لله.

٤- وأما قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ الأنعام ٥٠، فهذه الآية الشريفة ليست نصاً فى تفضيل الملك على النبى ﷺ، ولكنها دالة على أنه ﷺ يتبع ما يوحى إليه من ربه، والمَلَكُ لا يتبع الوحى بدليل قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ الأنعام ٥٠، بل هى حُجة على أن النبى ﷺ أفضل من الملك.

٥ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ الأعراف ٢٠، أى: إلا كراهة أن تكونا ملكين، فهى وإن دلت على أن الملك أفضل من آدم وحواء فإنها مقيدة بوقت مخاطبة إبليس لعنة الله عليه لهما، ثم بعد أن اجتباهما ربهما صار آدم عليه السلام أفضل من الملائكة.

٦ وما أورده المخالف لنا من أن الملك معلم للنبى ورسول من قبل الله تعالى له فهو أفضل منه، كما أن النبى أفضل من أمته لأنه مرسل من قبل الله تعالى لهم ومعلم لهم، فهذا ليس مقياس، لأن النبى ﷺ مع أمته لا يقاس عليه، وذلك لأن المِلك إذا أرسل رجلاً إلى جماعة ليتولاهم ويحكم فيهم يكون أفضلهم، ولكن إذا أرسل المِلك واحداً إلى وليه على

الجماعة ليبلغه رسالة الملِك لا يكون ذلك الشخص الواحد أفضل من المرسل إليه، الذى أقامه الملِك حاكماً ومعلماً. هذا وإن الملائكة أرواح طاهرة مطهرة من بواعث الشهوة والحظ ونجاسات الأهواء والآمال، كما قال الله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ التحريم ٦، وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة، وكُلاً وعد الله الحسنى.

الإنسان الكامل كعبة الأرواح العالية

هذا ما قرره العلماء، ومن شهد مشهد الأسماء والصفات بعد التزكية والتحلى بمشهد أهل الحكمة ثم التوحيد ثم التوفيق، يعلم أسرار الحكمة وأنوار القدرة المنبلجة فى كل رتبة من رتب الوجود، ولديها يتحقق أن الإنسان الكامل كعبة الأرواح العالية، وسدرة منتهى علوم الخلائق من عالم الإنس والجن والملائكة الروحانيين أجمعين.

والأولى ترك الاعتراض على أهل كل مشرب، فإن لكل فرقة مشهد تجلت لهم حقيقته، ولا تقوم لهم به الحُجة على غيره إلا إذا تزكت النفس التى أهلت لشهوده. ومن أراد أن يجمل إخوته المؤمنين بما جمله الله به من العلم والحكمة والمعرفة، فالأولى له ترك الجدل الذى ذمه الله تعالى وذم أهله، وعليه أن يهتم بتأليفهم وتزكية نفوسهم إن كان ممن منحهم الله البيان والعمل، كما قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ آل عمران ١٠٤، فإذا تزكت نفوسهم ضرب لهم الأمثال المشوقة إلى ما يريد أن يبين لهم من الحق، فإذا اطمأنت قلوبهم شرح لهم ما هم فى حاجة إليه بقدرهم، وهى طريق الربانيين الراسخين فى العلم، ولا يشوش على إخوانه المؤمنين ويدعوه جهله إلى تفرقتهم، فيكون من الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ الأنعام ١٥٩، والله سبحانه وتعالى يمنحنا التوفيق لما يحب، إنه مجيب الدعاء.

الكرامات الباهرة

لا يختلف مسلم فى اعتقاد أن الله يكرم من شاء بما شاء وهو الكريم سبحانه، ويتفضل على من شاء بما شاء وهو ذو الفضل العظيم، ولكن الخلاف بين من جوز الكرامة ومن

أنكرها فى إظهار الأمر الخارق للعادة بطلب الولى، وإلا فمن أنكر إكرام الله لأوليائه بدون طلبهم وتفضله عليهم من حيث لا يحتسبون، وإنزال الأمطار بدعائهم ودفع البلاء وشفاء المرضى، وبسط الرزق بابتهالهم إلى الله تعالى، فإن أصغر مسلم فضلاً عن أكمل المؤمنين يستجيب الله له إذا سأله، وينتقم له ممن ظلمه. ولو قيل لك: إن ولياً من أولياء الله تعالى دعا الله فأزال الأمراض وأنزل الأمطار أو انتقم من الظالمين، فصدق، قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ النمل ٦٢، فلم يبق مسلم إلا وهو يعتقد أن الله يكرم عباده ويعطيهم ما يسألون.

ومنكر الكرامة لم ينكر إكرام الله لعباده، وإنما ينكر أن يكون الولى مثل النبى ﷺ فى إظهار الأمر الخارق للعادة عند طلبه، ولو أن المنكر زاده الله علماً على علمه أنزل الولى فى منزلته، والنبى صلوات الله وسلامه عليه فى مقامه العلىِّ، وفهم أن نور الولى إنما هو سراج مقتبس من شمس النبى ﷺ، وأنه لا يكون ولياً يكرمه الله بخوارق العادات إلا إذا استغرق فى محبة الله ورسوله، وصار الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأقامه الله تعالى وارثاً لرسوله ﷺ يبين حجج الله وبيناته، فانياً عن حظه وهواه، يبتغى فضل الله ورضاه، وعند ذلك تكون الكرامة منه معجزة لرسول الله ﷺ.

وإليك آيات كتاب الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ النمل ٤٠، والذى عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخيا، كان ولياً من أولياء الله تعالى أظهر الأمر الخارق للعادة، فكانت الآية معجزة لسيدنا سليمان وكرامة من الولىِّ. وقال الله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ الكهف ٢٥، وأهل الكهف أولياء، وقد أكرمهم الله. وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ آل عمران ٣٧، ومريم صديقة، حتى انشرح صدر سيدنا زكريا أن يسأل الله غلاماً زكياً بما شهده من إكرام الله للصديقة، فأجاب الله سبحانه سؤاله.

حقيقة أن الأنبياء يظهرون المعجزة لإثبات نبوتهم وتصديقهم لما جاءوا به من عند الله، أما الولى فإن الله يظهر الكرامة على يده لدفع ضرر أو جلب خير، وهو أمر لا يجعل

الكرامة تلتبس بالمعجزة، وشتان بين من يقول: إنى رسول الله إليكم وحجتى أن أشق القمر، أو أحيى الموتى، أو يشهد لى الضب؛ وبين رجل يرى إخوته المؤمنين فى بلاء فيسأل الله زواله، أو فى حاجة فيسأل الله قضاءها.

ومن هنا يظهر أنه لا خلاف بين المسلمين، ومنكر الكرامة إنما نظر إلى علو مقام النبى ﷺ أن يساويه ولىٌّ وهو نظر أهل العقل، ومثبت الكرامة نظر إلى أن الولى سر من أسرار النبى ﷺ، وأن الله إنما يكرم النبى فى ذات كل ولىٍّ من المسلمين، وهو نظر بعيون الإيمان واليقين، وكلا وعد الله الحسنى.

عقيدة المؤمن

هذا ما يمكن أن يُرسم بالكتابة ويبين بالعبارة، حتى إذا انعقدت القلوب عليه أشرقت عليها أنوار مكون الأكوان، فتتميز مراتب الوجود، ويحصل للنفس شوق إلى علم الآيات الظاهرة فى الكائنات، فيجول الفكر جولة باحث بنظر سديد فيما خفى فى تلك الآثار سر قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يونس ١٠١، فتلوح عليه أنوار الأسرار الدالة على قدرة القادر البديع الحكيم، ويأنس بأنوار الملكوت الأعلى، وتجلى له العوالم فى كل مرتبة من مراتب الوجود؛ وكلما انكشفت له مرتبة من مراتب الوجود علم من نعم الله عليه سبحانه وتعالى وأياديه سبحانه الواصلة إليه علماً لم يكن يعلمه من قبل، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ طه ١١٤، ويترقى فى تلك المقامات العلية حتى يبلغ من الكمالات ما يصير به حاضراً مع الله سبحانه وتعالى، ويرى كل ما سواه سبحانه وتعالى مقهوراً مربوباً لله عز وجل، وبقدر ما ينكشف له من تلك الأسرار يكون تعظيمه للجناب المقدس، وإجلاله لأحكامه، واقتداؤه برسول الله ﷺ، ويكون فى مقام بين الرغبة والرهبة، لا يعظم غير الله، ولا يشتغل بغير ذكره، ولا يحب إلا من والاه سبحانه وتعالى.

فهذه العقيدة تجعل الإنسان عظيماً فى نفسه، من لا يذل لغير مولاه الذى خلقه وأبدعه، لأنه يرى أن كل من سوى الله عبيد أمثاله، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، يحب من أحب الله تعالى، ويعظم من عظمه الله تعالى، ويطيع من أمر الله بإطاعته فيكون حبه لله

وتعظيمه لله وطاعته لله، يرى فى كل شئ آية دالة على عظمة المبدع الحكيم القادر، ودليلاً ساطعاً على ذل هذا الشئ وقهره بقهر الكبير المتعال، فيكون كل شئ فى عين من اعتقد تلك العقيدة وإن عظم خلقاً وكمل خلقاً وعم النفع به صغيراً فى عين من تجمل بهذه العقيدة الإيمانية، لاعتقاده أن هذا الجمال والكمال مفاض من جناب القدس فضلاً من الله تعالى ورحمة، فيشهد بعين رأسه هذا المخلوق، وبنور سره أنوار الخلاق العظيم، وأسرار ممد الكائنات بحقيقة الإيجاد والإمداد، فتكون قيومية الحق وأنوار قدرته وأسرار حكمته مشهد عيون سره، وتلك الآثار الدالة على الآيات مشهد عيون بصره، ومدرك حواسه، فلا يحصل له لبس لانبلاج أنوار العقيدة الحقة على عيون سره، ولا طيش لكمال يقينه بمقتضيات كمالات ربه، ويكون الكون وما فيه وسائل قرب، وأقداح طهور لحب، وشموساً ماحية لظلمات الأوهام وكثائف العقول، وإن المؤمن بهذه العقيدة وإن تقلب جسمه فى المعاصى فقلبه مشرق بنور التوحيد، يطمئن بالمبدئ المعيد.

كثائف الظلمات

أما غيره ممن لم تشرق على قلبه أنوار العقيدة الإسلامية وإن كان جسمه متقلباً فى الطاعات فقلبه منعقد على كثائف الظلمات، ولذلك ترى غيرنا جماعة المسلمين يرون مخلوقاً مثلهم إلهاً يُعبد وتحتار فيه عقولهم الكثيفة السخيفة، فمنهم من يقول: هو الله، ومنهم من يقول: هو ابن الله، ومنهم من يقول: حل فيه الإله. وهى عقيدة فطر عليها بنو الإنسان من الجهالات القديمة، وهاوية هوت فيها العقول التى تسلط عليها الوهم بنظر أعمال يحدثها الله على يد من يشاء، ومنافع يودعها الله ما شاء ومن شاء، وأسرار يظهرها الله سبحانه متى شاء بمن شاء، ليكشف للعقول غرائب قدرته، وعجائب حكمته، فتنكسف أنوار العقول عن أن تخرق حجب الأوهام، وتنعقد القلوب على الشرك أو الجحود أو الكفر، نعوذ بالله تعالى من حال يشهد فيه الإنسان الجناب المقدس محيزاً أو مكيفاً أو مشبهاً أو معدوداً أو محدوداً أو والداً أو مولوداً.

ظهر لك أن عقيدة الإيمان تجعل المؤمن عزيزاً فى نفسه، كبيراً على أن يذل لغير ربه، علياً

على أن يشهد نافعاً أو ضاراً سوى مبدعه وخالقه، أشرق على قلبه نور التوحيد فجعله إنساناً كاملاً.

وغير المسلم انحط عن مكانة الإنسانية، فجعل الله حجراً أو كوكباً أو إنساناً مثله، ويا ليته أخفى تلك الضلالات التى تقشعر لها جلود العقلاء، وتضطرب لها قلوب أهل القلوب، ولكنه قام يؤيد تلك الضلالات بما هو أضل منها، فمنهم من يقول: المسيح ابن الله، أو: هو الله، أو: حل فيه الإله.

ومن هو المسيح بن مريم؟ إنسان كان يأكل ويشرب ويبول وينام ويخاف ويأمن ويفرح، وتنزه الجانب المقدس عن أن يحيط به العرش العظيم فضلاً عن أن يحويه سبحانه جسم إنسان أو جسم إنسانة، وتعالى علواً كبيراً عن أن يحتاج إلى طعام يقوم به صلبه، أو ألم يؤلمه من حصر بول أو غائط، وهو سبحانه الغنى عن كل من سواه، المفتقر إليه جل جلاله كل من عداه، وما المسيح بن مريم إلا آية من آياته، مقهور بقهره ذليل لعزته، قال الله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ مريم ٩٠-٩٣.

وأقبح من تلك العقيدة اعتقاد من يصنع حجراً بيديه ثم يقف له ذليلاً خاشع القلب والجسم، ويعتقد أنه هو الإله الخالق القادر، سبحان الله ما أعمى عيون البصائر! ولله الحمد على الإسلام فى تنزيه ذاته سبحانه عن الولد والوالد.

رفعة الإنسان بالإسلام

هذا هو سر المقابلة بين عقيدة الإسلام التى تجعل الإنسان فوق الملائكة قدراً لا يخشى إلا الله، ولا يرجو إلا الله، ولا يعتقد على غير الله، ولا يبتغى الفضل والرضا إلا من الله، وبين العقائد الأخرى التى تجعل الإنسان فى أسفل سافلين، ويتخذ إنساناً مثله إلهاً له، أو يصنع آلهة من الجمادات أو النباتات، أو يعبد الكواكب أو البهائم.

نعم، رفع الإسلام الإنسان بما كشف له من أسرار الغيب عن حكمة إيجاده وسر إمداده،

لأنه لؤلؤة العقد، وخليفة عن ربه، خلقه الله على صورته، وسخر له جميع ما فى سماواته وأرضه، حتى بلغ الإنسان منزلة بالإسلام يكون فيها مع الله سبحانه والله تبارك وتعالى معه، ومقاماً من المقامات تكون فيها الملائكة فى خدمته، فكيف يرضى الإنسان بالذل بعد العز؟ وبالسفل بعد الرفعة؟ وبغضب الله ومقته بعد محبته ورضوانه؟ هذه نتائج عقائد الكفر، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ القيامة ١٤-١٥، وقال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ الكهف ١٧.

الأصل الذى أسس عليه الدين

من المقرر أن الأصل الذى أسس عليه الدين وتفرعت عليه فروعه، وتجمل منه السالكون بجمال المشاهد العليا، وأحوال مقامات أهل اليقين؛ هو العقيدة الحقة التى مأخذها كتاب الله تعالى وسُنة رسوله ﷺ، ومتى انعقد القلب على تلك العقيدة الحقة كوشف بأنوار ذى العزة والجلال فامتلأ خشية منه سبحانه، وشهد جمال الحكيم المنعم المتفضل فانجذب إلى حضرته بالمحبة الخالصة، فكانت الخشية عن اليقين نور قلبه، والمسارعة للقيام بما أوجبه الله سبحانه ورغب فيه جمال ظاهره، وذلك لأن أعمال الجوارح المجترحة عن مشهد القلب المعمور بالعقيدة الحقة، المشرف على العزة وقدس الجبروت الأعلى بعد مشاهدة الملكوت ومعاينة الآيات فى الملك، ولديها يكون المسلم عبداً عابداً شاهداً مشهوداً، مسارعاً إلى مغفرة من ربه وجنات عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، لا يتنفس نفساً إلا سطعت أنوار أنفاسه على عالم الملكوت الأعلى، فيكون نور أنفاسه لأهل الملكوت كنور الشمس لأهل الأرض، تتزين بأنفاسه الجنات، وكيف لا... وفى كل نفس من أنفاسه مغفرة من الله ورضوان، جمل الله قلوبنا بحقيقة اليقين ونور التمكين، وظاهرنا بحُلل عباده المنعمين، وجمال أوليائه المقربين، إنه مجيب الدعاء.

الباب الثالث

العبادات

الفصل الأول

تعريف العبادة وأقسامها والغرض منها

تعريف العبادة

هى فعل اختيارى، مناف للشهوات البدنية، يصدر عن نية يراد بها التقرب إلى الله تعالى إطاعة للشريعة. فقولنا: فعل اختيارى، يخرج منه الفعل التسخيرى والقهرى، ويدخل فيه الترك الذى هو على سبيل الاختيار، فإن الترك ضربان: ضرب على سبيل الاختيار وهو فعل، وضرب هو العدم المطلق لا اختيار معه بل هو عدم الاختيار وليس بفعل. وبقولنا: مناف للشهوات البدنية، يخرج منه ما ليس بطاعة. وأما الأفعال المباحة كالأكل والشرب ومجامعة المرأة فليست بعبادة من حيث أنها شهوة، ولكنها قد تكون عبادة إذا تحرى بها حكم الشريعة. وإنما قيل: تصدر عن نية يراد بها التقرب إلى الله تعالى، لأنها إن خلت عن نية أو صدرت عن نية لم يقصد بها التقرب إلى الله تعالى بل أريد بها المراء لم تكن أيضاً عبادة وإنما قيل: طاعة للشريعة، لأن من أنشأ من نفسه فعلاً ليس بسائغ فى الشريعة لم يكن عبادة وإن قصد به التقرب إلى الله تعالى.

فالعبادة إذاً هى فعل بجميع الأوصاف كلها، والعبادة تكون محمودة إذا تعاطاها الإنسان طوعاً واختياراً لا اتفاقاً واضطراراً، ودائماً لا فى زمان دون زمان، ولأجل أن ذاتها حسنة لا لأجل غيرها، فمن أتمها على الوجه الأكمل فهو الموصوف بقوله تعالى: ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ النساء ١٤٦، وقال ﷺ: (أَخْلِصْ يَكْفِيكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ)، ولا يقبل تعالى إلا العمل الخالص لوجهه كما قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ الزمر٣، فإن من فعل خيراً نحو أن يصلى لأنه اتفق اجتماعه مع المصلين فسايرهم، أو أكره أن يصلى، أو صلاها فى شهر رمضان مثلاً دون سائر الأوقات، أو لأجل

أن ينال بها جاهاً أو مالاً فليس ذلك ممن يستحق بها محمدة. وكذا من ترك قبيحاً إما اتفاقاً أو اضطراراً أو خوفاً، أو فى زمان دون زمان، أو لأن ينال بذلك أمراً دنيوياً فليس بمحمود. ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ البقرة ٢٦٢، تنبيهاً منه سبحانه على أن من لم ينفق ماله هكذا ويعلوه خوف من الفقر وحزن على الإنفاق فلا يحصل له بذلك فضيلة، ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ البقرة ٢٦٤.

أقسام العبادة

١ العبادة علم وعمل

العبادة ضربان: علم وعمل، وحقهما أن يتلازما لأن العلم كالأس والعمل كالبناء، وكما لا يغنى أس ما لم يكن بناء ولا يثبت بناء ما لم يكن أس، كذلك لا يغنى علم بغير عمل ولا عمل بغير علم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ فاطر ١٠، والعلم أشرفها لكن لا يغنى بغير عمل، ولشرفه قال رجل للنبى ﷺ: (أيَا الأعمالُ أفضلُ يا رسول الله؟ فقال: (العلم)، فأعاد عليه السؤال، فقال: (العلم)، فقال الرجل فى الثالثة: أسألك عن العمل ولا عن العلم، فقال عليه الصلاة والسلام: (عملٌ قليلٌ معَ العلم خيرٌ مِنْ عملٍ كثيرٍ مَعَ الجهلِ)، وقال عليه الصلاة والسلام: (طلبُ العلْمِ فريضةٌ على كُل مسلمٍ).

فالعلم ضربان: نظرى وعملى.

فالنظرى: ما إذا علم كفى ولم يحتج فيه بعده إلى عمل، كمعرفة وحدانية الله تعالى، ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومعرفة السماوات والأرض وما أشبه ذلك.

والعملى: إذا علم لم يغن حتى يعمل به، كمعرفة الصلاة والزكاة والجهاد والصوم والحج

وبر الوالدين.

والأعمال ثلاثة أضرب: عمل يختص بالقلب، وعمل يختص بالبدن، وعمل مشترك فيه البدن والقلب، وقد فصلت هذا الموضوع فى كتاب " النور المبين" فراجعه إن شئت.

والعلم إذا نظر إليه من حيث تحصيله فاكتسابه عمل، وإذا نظر إليه وقد اكتسب وتصور فى القلب خرج فى تلك الحال عن أن يكون عملاً، وللإنسان فى استفادة العلم وإفادته ثلاثة أحوال: حال استفادة فقط، وحال استفادة ممن فوقه وإفادة لمن دونه، وحال إفادة فقط. وكل من يستحق أن يوجد مفيداً غير مستفيد ففوق كل ذى علم عليم إلى أن ينتهى الأمر إلى علام الغيوب. فقد نبه تعالى على الحاجة إلى الاستفادة بما حكاه من قول سيدنا موسى عليه السلام لصاحبه: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ الكهف ٦٦، ونبه بما ذكر فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام عن الهدهد بقوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ النمل ٢٢، أن الكبير قد يفتقر إلى الصغير فى بعض العلوم، فإذاً الإنسان ما دام حياً يجب ألا يخرج عن كونه مستفيداً ومفيداً، كما قال عليه الصلاة والسلام: (الناسُ عالِمٌ ومتعلمٌ وما سِواهُما هَمَجٌ).

٢ الواجب والمندوب

ومن وجه آخر ضربان: واجب ومندوب، فالواجب يقال له: العدل، والمندوب يقال له: الإحسان. وهما المذكوران فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ النحل ٩٠، فالفرض أو العدل تحرى الإنسان ما إذا عمله أثيب وإذا تركه عوقب. والندب أو الإحسان تحرى الإنسان ما إذا عمله أثيب وإذا تركه لم يعاقب.

والإنصاف من العدل والتفضل من البر والإحسان، فالإنصاف هو مقابلة الخير من الخير والشر من الشر بما يوازيه، والتفضل والبر مقابلة الخير أكثر منه والشر بأقل منه، فالإحسان والتفضل احتياط فى العدالة والإنصاف ليأمن به من وقوع خلل فيه، وذلك أنك إذا زدت فى إعطاء ما عليك ونقصت فى أخذ مالك فقد احتطت وأخذت بالعزم كدفع زيادة زكاة إلى الفقير، وترك ما أحل لك من مال اليتيم، فالعدالة إن كانت فالتفضل أحسن منها، وكذلك

قال تعالى فيمن استوفى حقه فتحرى العدالة: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ الشورى ٤١، وقال سبحانه بعد: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ البقرة ٢٣٧، وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ﴾ البقرة ٢٣٧، إشارة إلى أن الإحسان حسن والتفضل أحسن، وقال جل جلاله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ يونس ٢٦، فالإنسان إنما يكون محسناً متفضلاً بعد أن يكون عادلاً منصفاً.

فأما من ترك ما يلزمه ثم تحرى ما لا يلزمه، فإنه لا يقال له متفضل، ولا يجوز تعاطى التفضل إلا لمن كان مستوفياً وموفياً لنفسه، أما الحاكم المستوفى والموفى لغيره فليس له إلا تحرى العدالة والنصفة.

٣ العلوم من حيث الكيفية

والعلوم من حيث الكيفية ضربان: تصور وتصديق، فالتصور هو أن يعرف الإنسان معنى الشئ صح عنده ذلك بدلالة لم يصح، كمن عرف الصلاة وشرائطها وإن لم تثبت صحتها عنده بدلالة، والتصديق هو أن يتصور الشئ ويثبت عنده بدلالة تقتضى صحته.

والتصديق على ثلاثة أضرب:

١ إما بغلبة الظن، وهو أن يكون عليها دلالة وقد يعترضها شبه توهنها أو تبطلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ الأعراف ٢٠١.

٢ وإما بعلم اليقين، وهو أن يصير بحيث يعلم، ويعلم أنه يعلم ولا تعترضه شُبه توهنه، كالعلم مثلاً أن ٣ + ٣ = ٦ وأنه لا يصح أن يكون أكثر من ذلك أو أقل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ الحجرات ١٥.

٣ وإما بعين اليقين، وهو أن يرى بعقله الشئ ويعاينه ببصيرته فى حال اليقظة والنوم، وقد نبه الله تعالى على هذا الوجود بقوله سبحانه: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ التكاثر ٣-٧، أما التصورات المجردة

فللعامة الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ النساء ٨٣، وأما غلبة الظن فللعامة الذين مدحهم الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ البقرة ٤٦، وأما علم اليقين فللخاصة، وأما عين اليقين ففى الدنيا للأنبياء ولبعض الصديقين، وإلى نحوه أشار ﷺ بقوله: (تَنَامُ عَيْنِي وَلاَ يَنَامُ قَلْبِى) وبقوله ﷺ: (إِنِّي أَرَى مِنْ خَلْفِي كَمَا أَرَى مِنْ قُدَّامِى)، وقال أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجه: (لو كُشِفَ الغِطاءُ ما ازددتُ يقيناً).

الغرض من العبادة

للعبادة حِكَم كثيرة لا تحصى منها تطهير النفس وجلب صحتها.

لم يكلف الله الناس عبادته لينتفع هو تعالى بها انتفاع المولى باستعباد عبيده واستخدام خدمه، فإن الله غنى عن العالمين، ولا ليؤدبهم فقد قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ البقرة ١٨٥ بل كلفهم سبحانه ليزيل أنجاسهم وأمراضهم النفسية، لينالوا بفضله ورحمته حياة أبدية، وسلامة باقية سرمدية، فإن من ولد يكون ميتاً بالإضافة إلى أصحاب الدار الآخرة، وفاقداً للعين التى بها يعرفهم، والسمع الذى به يسمع تحاورهم، واللسان الذى به يخاطبونه وبه يخاطبهم، والعقل الذى به يعقل عنهم.

فليس تلكم الحياة العين والسمع وما للإنسان فى الحياة الدنيا، وكيف يكون ذلك وقد نفى الله ذلك عن الكفار وجعلهم أمواتاً وصماً وبكماً وعمياً.

إن الإنسان له قوة على تحصيل تلك الأمور فى ابتداء أمره، فإن أهمل نفسه فى ابتداء أمره فلم يحصل لنفسه تلك الفضائل فى وقت التحصيل ضعفت القوة عن التحصيل، وفاته الخير فلا يمكنه بعد الفوت قبول ذلك، كالفحم إذا صار رماداً فلا يصير بعد ذلك ناراً، فمن استمر فى كفره وفسقه وتمادى فيه صار إما ميتاً أو مريضاً أو أصم لا يقبل الشفاء، ولذلك قال الله تعالى فيمن ثكل هذه القوة: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ النمل ٨٠-٨١، وقال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ البقرة ١٧١،

وقال تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ محمد ٢٠، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ التوبة ٢٨، وقال تعالى فى المؤمنين: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ يس ٧٠، وقال فيهم: ﴿أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ ص ٤٥.

فمن استفاد الحياة والصحة والطهارة قبل أن تبطل عنه هذه القوى أعنى قبول ذلك فصار حياً سميعاً بصيراً طاهراً وحصل التزود كما أمره الله تعالى بقوله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ البقرة ١٩٧، واهتدى بالدليل الموصوف بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ الشورى ٥٢-٥٣، وائتمر بقول الله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ الحديد ٢١، واقتدى بالموصوفين بقوله سبحانه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ المؤمنون ٦١، فجدير أن يفلح فتحصل له هذه السعادة كما قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور ٣١.

ومن حكم العبادات شكر المنعم سبحانه على ما أنعم، فإن النفس إذا تطهرت من نجاساتها وزالت عنها أمراضها أهلت لأن تكون مرآة مصقولة لنقش حقيقة العلم فيها، فتنكشف لها حقيقتها التى بانكشافها لها تنبلج أنوار الحق، فتعلم علماً نسبياً بعض المواهب والنعم المفاضة فضلاً من الله وهى لا تحصى عداً، ولا تستقصى حداً، ثم تكاشف بما أعده الله للإنسان من النعم التى لا تتصورها الخيالات، من شهود جمال إلهى، وتنعم بنعيم أبدى، ودوام بهجة لا تزول، فتكون العبادة بعد تلك التزكية شكراً لمنعم متفضل، ومسارعة إلى نيل رضوانه الأكبر، وفضله العظيم، ونعمته الحقيقية، قال الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ سبأ ١٣، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران ١٣٣، فتكون العبادة جامعة لمعانى الكمالات كلها، فهى تزكية للنفوس، وشكر لمنعم متفضل وهاب، ومسارعة إلى نيل الخير الحقيقى والنعيم الأبدى والرضوان الأكبر، وهناك حكمة عالية أخرى، يشهدها أهل المعرفة بالله، لا يمكن أن يصرح بها إلا بالإشارة، العبادة عمل جليل جداً تبتهج به النفوس الفاضلة، ونسبة شريفة تفتخر بها الأرواح الطاهرة، ومشهد لا يوصف جماله ولا كماله تسارع إليه الأرواح الملكية، ومواجهة لملك عظيم

كبير متعال، وتمثل بين يدى واحد أحد فرد صمد منعم متفضل رزاق كريم.

بيان الأمراض والأنجاس التى لا يمكن إزالتها إلا بالشرع

كما أن فى بدن الإنسان عوارض وأموراً موجودة عند الولادة أو توجد حالاً فحالاً بحكمة تقتضى ذلك، وهى تعد نجاسات لابد من إماطتها كلها أو إماطة فضولاتها، وذلك كالسلا الذى يكون فيه الولد، والسرة والقلفة والعقيقة الموجودة فى الصبى عند الولادة، وكالأوساخ والقمل والظفر وشعر الإبط. كذلك فى نفس الإنسان عوارض هى نجاسات وأمراض نفسانية يلزم إماطتها كالجهل والشره والعجلة والشح والظلم، ويدل بقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ الأنبياء ٣٧، كون ذلك مخلوقاً فيه وأنه تعالى أمره بإماطته وإماطة فضلاته بالمجاهدة القوية ليصير شبيها بالصديقين، فذكر أنه مخلوق فيه كما ترى، ثم أمره أن يميط العجلة عن نفسه فقال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ الأنبياء ٣٧، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ الأحزاب ٧٢، ثم أمره بالعلم والعدل فى غير موضع من كتابه. وقوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ النساء ١٢٨، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الحشر ٩، فأمره باتقاء الشح، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ المعارج ١٩-٢١، ووصفه بالكفور والقتور فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ الإسراء ٦٧، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾ الإسراء ١٠٠، فأدخل عليه ﴿كَانَ﴾ تنبيهاً على أن ذلك فيه غريزى موجود قبل وليس هو بشئ طارئ عليه ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ الكهف ٥٤، ثم نهى عن أكثر الجدل.

فالإنسان يحتاج أن يستعمل هذه القوى فى الدنيا كما يجب، ووقت ما يجب، وبقدر ما يجب، وأن يميط عنه ما يضر ولا ينفع قبل خروجه من الدنيا حسب ما وردت به الشريعة، فإنه متى لم يتطهر من النجاسة ولم يزل أمراض نفسه لم يجد سبيلاً إلى نعيم الآخرة؛ بل ولا إلى طيب الحياة الدنيا، وذلك أن من تطهر تجلى عن قلبه الغشاوة فيعلم الحق حقاً والباطل باطلاً فلا يشغله إلا ما يعنيه، ولا يتناول إلا ما يعنيه، فيحيا حياة طيبة كما قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ النحل ٩٧، ولا تصير مقتنياته فى الدنيا وبالاً عليه وعذاباً كما قال الله

تعالى فى الكفار: ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ التوبة ٨٥، ويصير قلبه متى تطهر محل السكينة والأرواح الطيبة كما وصف الله المؤمنين بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ الفتح ٤، ويعرف الطريق التى بها التوصل إلى جنة المأوى ومصاحبة الملأ الأعلى فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، فيسارع فى الخير ويسابق إلى مغفرة من ربه وجنة عرضها السماوات والأرض. ومتى بقيت نجاسته وتزايدت صار قلبه مقر الشبه والآثام كما قال تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ الشعراء ٢٢١-٢٢٢، فلا يجد سبيلاً إلى سعادة الدار الآخرة كما قال تعالى: ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ۝ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ المعارج ٣٨-٣٩، فنبه على أنه لا يصلح لجنته ما لم تطهر ذاته عن أشياء هى مخلوقة فيها، وعلى هذا دل قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ آل عمران ١٧٣.

فحق على الإنسان أن يراعى هذه القوى فيصلحها ويستعملها على الوجه الذى يجب وكما يجب، ليكون كمن وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ النحل ٣٢، وقد يقع للإنسان شبهة فى أمر هذه النجاسات فيقول: أترى أن ذلك من عند غير الله؟ فإن كان من غيره فمن أين منبعه؟ وإن كان منه فما المعنى فى أن أوجده فى الإنسان ثم أمره بأن يزيله؟ فيقال: ما من شئ أوجده الله أو أمكن من إيجاده إلا وفيه حكمة ومنفعة وإن لم يعرف ذلك الإنسان، لكن من الأشياء ما نفعه فى وقت مخصوص، أو إذا كان على قدر مخصوص، ثم إذا استغنى عنه أو زاد على قدر ما يحتاج إليه يجب أن يزال وذلك ظاهر بالتأمل، إذ من المعلوم أن السلى والسرة يحتاج إليهما لصيانة الولد فى وقت، ثم يستغنى عنهما فيكون إبقاؤها يعد نجاسة، والشعر والظفر يحتاج إليهما إذا كانا على حد، وإذا زاد يجب إماطتها.

النجاسات المخلوقة فى ذات الإنسان وعلاجها

وقد شرحت فى قسم علوم النفس فى كتاب "معارج المقربين" الفضائل وأضدادها، وبينت أن الفضيلة وسط بين رذيلتين، ولتمام الفائدة لا أخلى هذا المختصر المبارك من بيان ما

لا بد منه من ذكر النجاسات المخلوقة فى ذات الإنسان التى يجب أن يعالجها بالأدوية الشرعية كما قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ الإسراء ٨٢، وقوله تعالى: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ يونس ٥٧، فأقول وبالله التوفيق:

معلوم أن القوى قوة الشهوة وقوة الحمية وقوة الفكر، فبإصلاح قوة الشهوة تحصل العفة فيحترز بها من الشره وإماتة الشهوة، ويتحرى المصلحة فى المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح وطلب الراحة وغير ذلك من اللذات الحسية، وبإصلاح قوة الحمية تحصل الشجاعة فيحترز من الجبن والتهور والحسد، ويتحرى الاقتصاد فى الخوف والغضب والأنفة وغير ذلك، وبإصلاح قوة الفكر تحصل الحكمة حتى يحترز من البله والخبث ويتحرى الاقتصاد فى تدبير الأمور الدنيوية، وبإصلاح هذه القوى تحصل فى الإنسان قوة العدالة، فيقتدى برسول الله ﷺ فى تزكية نفسه وحسن معاملته لغيره، فنفس الإنسان معادية له كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ يوسف ٥٣، وقال ﷺ: (أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ) فمن أدبها أو قمعها أمن ظلمها، وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله:﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ طه ١١٢، أى لا يخاف أن تظلمه نفسه الشهوية، فالأعمال الصالحة حصن منها لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ العنكبوت ٤٥.

فإذا أقام المسلم الصلاة إقامة تجعله عالماً بمعنى ما يعمل، متيقناً نسبته فى عمله وكمالاته الحقيقية عند مواجهته فى الصلاة التى هى أضداد صفات الحق، شهد بعين سره نور مواجهة إله عظيم كبير معبود علىٍّ موفق هاد، فينجذب بالكلية إلى التخلق بتلك الأخلاق الربانية، والتجمل بالحظوة لتلك الجلوة العلية، ويقوى اشتياقه إلى دوام مواجهة هذا النور المشرق الذى هو قرة عين العارفين، وسر قوله ﷺ: (وَجُعِلَت قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ) وقوله ﷺ: (أَوَّلُ الْوَقْتِ رِضْوَانٌ) وقوله ﷺ: (أَبْرِدُوا بِالصَّلَاةِ) ومن لم تزك نفسه لا تصح له تلك المواجهة؛ فيقف فى الصلاة بجسمه وقلبه يتقلب فى طمع أو شح أو هوى، لم يكن ذلك لأن الله تعالى محجوب عن سره، بل لأن سره محجوب عن مواجهة الحق، ونفسه مسجونة فى نجاساتها ولقسها ودنسها، والأولى للمسلم أن يسارع إلى أولياء الله الذين تزكو بصحبتهم نفسه، ويزول بحبهم لبسه، حتى تشرق عليه أنوار القربات، وتصح له أسرار المواجهات، وأكمل تلك المواجهات عند إقامة الصلاة.

الفصل الثانى

بيان فى العبادات

الصلاة

الصلاة عماد الدين وأساسه، وشكر المنعم المتجدد على عميم نعماه المكرر فى كل يوم جديد، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ طه ١٤، وقال ﷺ: (الصَّلَاةُ عِمَادُ الدِين)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ النساء ١٠٣، وقد اختار الله تعالى الذين مع حبيبه محمد ﷺ واختار لهم الصلاة فقال تعالى: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ الفتح ٢٩، وقد أخبر الله تعالى عن المؤمنين على التحقيق أنهم يقيمون الصلاة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الأنفال ٢-٣، وعنه ﷺ قيل: أى الأعمال أحب إلى الله؟ قال: (الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا)، وقال ﷺ: (بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ)، فمن ضيع الصلاة فهو لغيرها من الدين أضيع.

واعلم أنك فى صلاتك تناجى ربك فانظر كيف تصلى، وحافظ فيها على ثلاثة أمور لتكون من جملة المحافظين على الصلاة وإقامتها، فإن الله تعالى إنما يأمر بالإقامة ويقول سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ العنكبوت ٤٥، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ البقرة ٤٣، ولم يقل سبحانه صَل أو صَلوا، ويثنى سبحانه على المحافظين على الصلاة فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ الأنعام ٩٢.

أولاً المحافظة على الطهارة

قال الله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ التوبة ١٠٨، وقال ﷺ: (لاَ يَقْبَلُ ٱللَّهُ صَلاَةً بَغَيْرِ طَهُورٍ)، وقال عليه الصلاة والسلام: (والطُّهُورُ نِصْفُ ٱلْإِيمَانِ). وقال ﷺ: (مِفتَاحُ ٱلصَّلَاةِ ٱلطُّهُورُ) فالمحافظة على الطهارة بأن يسبغ الوضوء قبل الصلاة، وإسباغه أن يأتى بجميع سننه وأذكاره المروية عند كل وظيفة منه، يحتاج أيضاً فى طهارة ثيابه وطهارة بدنه وطهارة الماء الذى يتوضأ به احتياطاً لا يفتح عليه باب الوسواس، فإن

الشيطان يوسوس فى الطهارة فيضيع أكثر أوقات العبادة.

واعلم أن المقصود من طهارة الثوب وهو القشر الخارج، ثم من طهارة البدن وهو القشر القريب، ثم من طهارة القلب وهو اللب الباطن، وطهارة القلب من نجاسات الأخلاق المذمومة كما سنذكرها فى القسم الثالث، لكن لا يبعد أن يكون للطهارة الظاهرة أيضاً تأثير فى إشراق نورها على القلب، فإنك إذا أسبغت الوضوء واستشعرت نظافة ظاهرك صادفت فى القلب انشراحاً وصفاء ما كنت لتصادفه من قبل، وذلك للعلاقة بين عالم الشهادة وعالم الملكوت، فإن ظاهر البدن من عالم الشهادة، والقلب من عالم الملكوت بأصل فطرته، إنما هبوطه إلى عالم الشهادة كالغريب عن جبلته، وكما تنحدر من معارف القلب آثار إلى الجوارح، فكذلك يرتفع من أحوال الجوارح أنوار إلى القلب، ولذلك أمرنا الله تعالى بالصلاة مع أنها حركات الجوارح التى هى من عالم الشهادة، وجعلها رسول الله ﷺ فى الدنيا ومن الدنيا وقال: (حُبِّبَ إِلَيَّ مِن دُنْيَاكُمْ ثَلاَثٌ: النسَاءُ، والطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فى ٱلصَّلاةِ).

فلا يبعد أن يفاض من طهارة الظاهر أثر على الباطن، ففى بدائع صنع الله أمور أعجب من هذا، إذ قد عرفت بالتجربة أن المُجامع فى حال المباشرة لو أدمن النظر إلى بياض مشرق أو حمرة قانية حتى غلبت تلك الصورة على نفسه، مال لون المولود إلى ذلك اللون الذى غلب عليه ، وأن الجنين أول ما يتحرك فى البطن تميل صورته إلى الحسن إن كانت الأم مشاهدة فى تلك الحالة لصورة حسنة بحيث غلبت الصورة على نفسها، ولذلك أمر رسول الله ﷺ المباشر عند مباشرته أن يحضر فى قلبه إرادة إصلاح المولود ويدعوا الله بذلك فيقول: (اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيطَانَ مَا رَزَقْتَنَا) حتى يفيض الله سبحانه مبادئ الصلاح على الروح التى خلقها عند إلقاء البذر فى محل الحرث بواسطة الصلاح الغالب على قلب الحارث، كما يفيض الله النور بواسطة المرآة المحاذية للشمس على بعض الأجسام المحاذية للمرآة.

وهنا الآن قرعنا باباً عظيماً من معرفة عجائب صنع الله فى الملك والملكوت، وقد أشممناك شيئاً يسيراً من أسرار الطهارة الظاهرة، فإن كنت لا تصادف بعد الطهارة وإسباغ الوضوء

شيئاً من الصفا الذى وصفناه، فاعلم أن الدرن الذى عرض على قلبك من كدورات شهوات الدنيا وشواغلها أرمد عين القلب فصارت لا تشهد باللطائف والأشياء الخفية اللطيفة، ولم يبق فى قوته إلا إدراك الجليات إن بقى، فاشتغل بجلاء قلبك وتصفيته فذلك أوجب عليك من كل ما أنت فيه.

ثانياً المحافظة على سنن الصلاة وأعمالها

وهى أن تحافظ على سنن الصلاة وأعمالها الظاهرة وأذكارها وتسبيحاتها حتى تأتى فيها بجميع السنن والآداب والهيئات كما جمعناها، فإن لكل واحد منها سراً وله تأثير فى القلب كما نبهنا عليه تأثير الطهارة، بل أشد وأبلغ، وشرح ذلك يطول، وأنت إذا أتيت بذلك انتفعت به وإن لم تعلم أسراره، كما ينتفع شارب الدواء بشربه وإن لم يعرف طبائع أخلاطه ووجوه مناسبته لمرضه.

واعلم ان الصلاة صورة صورها رب الأرباب كما صور الحيوان مثلاً، فروحها النية والإخلاص وحضور القلب، وبدنها الأعمال، وأعضاؤها الأصلية الأركان، وأعضاؤها الكمالية الأبعاض، فالإخلاص والنية فيها يجريان مجرى الروح، والقيام والقعود يجريان مجرى البدن، والركوع والسجود يجريان مجرى الرأس واليد والرجل، وإكمال الركوع والسجود والطمأنينة وتحسين الهيئة تجرى مجرى حسن الأعضاء وحسن أشكالها وألوانها، والأذكار والتسبيحات المودعة فيها تجرى مجرى آلات الحس المودعة فى الرأس والأعضاء كالعينين والأذنين وغيرهما، ومعرفة معانى الأذكار وحضور القلب عندها يجرى مجرى الحس المودع فى آلات الحس كقوة السمع وقوة البصرة والشم والذوق واللمس.

واعلم أن تقربك بالصلاة كتقرب بعض خدم السلطان بإهداء وصيفة إلى السلطان، واعلم أن فقد النية والإخلاص من الصلاة كفقد الروح من الوصيفة، والمهدى للجيفة الميتة مستهزئ بالسلطان فيستحق سفك الدم لغفلة قلبه عن عظمته، وفقد الركوع والسجود يجرى مجرى فقد الأعضاء، وفقد الأذكار يجرى مجرى فقد العينين من الوصيفة وجدع الأنف والأذنين، وعدم حضور القلب فى غفلته عن معرفة معانى القرآن والأذكار كفقد

السمع والبصر مع بقاء جرم الحدقة والأذن، ولا يخفى عليك أن من أهدى وصيفة بهذه الصفات كيف يكون حاله عند السلطان؟.

هذا مثال العبد لعبد مثله، فكيف بمن يتقرب إلى خالقه ومبدعه المواجه لجماله العلى وعزته وعظمته، كيف يقف أمامه ويغفل عن عظمته؟ اللهم أعذنا من الغفلة خصوصاً عند القيام بعمل ما أمرت به إنك مجيب الدعاء.

واعلم أن قول الفقيه فى الصلاة الناقصة ألفاظها وسننها إنها صحيحة كقول الطبيب فى الوصيفة المقطوعة أطرافها إنها حية ولست بميتة، فإن كان ذلك كافياً فى التقرب بها إلى السلطان ونيل الكرامة منه فاعلم أن الصلاة الناقصة صالحة أيضاً للتقرب بها إلى الله سبحانه ونيل الكرامة، وإن أوشك أن يرد ذلك على المهدى ويزجر، فلا يبعد مثل ذلك فى الصلاة فإنها قد ترد على المصلى كالخرقة الخلقة، كما ورد فى الخبر من قوله ﷺ: (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً)، واعلم أن أصل الصلاة التعظيم والاحترام، وإهمال آداب الصلاة يناقض التعظيم والاحترام.

ثالثاً المحافظة على روح الصلاة

أن تحافظ على روح الصلاة وهى الإخلاص وحضور القلب فى جملة الصلاة، واتصاف القلب فى الحال بمعانيها، فلا تسجد ولا تركع إلا وقلبك خاشع متواضع على موافقة ظاهرك، فإن المراد خضوع القلب لا خضوع البدن، ولا تقول (الله أكبر) وفى قلبك شئ أكبر من الله تعالى، ولا تقول: (وجهت وجهى) إلا وقلبك متوجه بكل وجهه إلى الله معرض عن غيره سبحانه، ولا تقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الفاتحة ٢، إلا وقلبك طافح بشكر نعمه عليك فرح به مستبشر، ولا تقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة ٥، إلا وأنت مستشعر ضعفك وعجزك وأنه ليس لك ولا لغيرك من الأمر شئ. وكذلك فى جميع الأذكار والأعمال، وشرح ذلك يطول، وقد شرحناه فيما سبق لنا .

فجاهد نفسك فى أن ترد قلبك إلى الصلاة حتى لا تغفل من أولها إلى آخرها إن استطعت،

فإنه لا يكتب للرجل من صلاته إلا ما عقل منها، فإن تعذر عليك الاستحضار وما أراك إلا كذلك، فانظر فإن كان على قدر الغفلة مقدار ركعتين فلا تعد الصلاة، ولكن افهم أن النوافل جوابر للفرائض، فتنفل بمقدار أن يحضر القلب فيها فى مقدار ركعتين، فكلما زادت الغفلة فزد فى النوافل حتى يحضر قلبك مثلاً فى عشر ركعات بمقدار أربع ركعات وهو قدر فرضك، فمن رحمة الله تعالى عليك أن قبل منك جبران الفرائض بالنوافل.

فهذه أصول المحافظة على الصلاة، وقد بينت ميزان الخواطر فى الصلاة فى كتاب " أصول الوصول" فليرجع إليه مريد المحافظة على الصلوات، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ المؤمنون ٩.

فرار المصلى إلى الله وهو فى صلاته

وما من عمل من أعمال القربات كلها إلا ومشاهده لا تخلو من شوب إلا الصلاة لأهل الخشوع والمعرفة، فإن مشاهدها العلية ترفع الحجاب عن المرتبتين، حتى تحصل المواجهة بالمكانتين، فيكون المصلى مجملاً بأكمل حلل العبد الخاشع الخانع، والله سبحانه وتعالى مواجهاً له بمعانى الجمال الإلهى، حتى يكون فى كل تكبيرة مشاهداً، وفى قراءة كل كلمة من كلمات الذكر الحكيم مكاشفاً بمعناها، سامعاً بالسمع الذى منحه الله كلام الله من الله، ويكون فى كل ركوع وسجود فاراً إلى الله من نفسه ومن كل كائن، وبقدر فراره إلى الله يكون قربه منه، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ العلق ١٩، وإنما يقيم الصلاة من شهد معانى مكانته شهوداً يجعله يذكر ربه، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ طه ١٤، وقد أثنى الله تعالى على المصلين ثناء جعل الأرواح الملكية تغبط المصلين الذين أثنى الله تعالى عليهم، وقال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ النور ٣٧-٣٨.

ولما كانت التجارة والبيع لفظين عامين قد يُراد بهما تجارة وبيع الدنيا أو تجارة وبيع الآخرة؛ فالعابد الذى يعبد الله لنعيم الجنة تاجر، والمؤمن الخالص الذى يبيع نفسه لله وماله

لله بائع، والرجل الذى يخرج فى الأسواق بسلعته بائع، والذى يخرج بلا سلعة ليتوسط بين الناس وينتفع فى الأسواق تاجر.

والمؤمن الكامل لا تلهيه تجارة الدنيا والآخرة ولا بيع نفسه لله أو بيع سلعته لغيره للربح عن ذكر الله بمعناه الحقيقى الذى به تقام الصلاة، وإقامة الصلاة التى تكون عن الذكر كشف الستار عن حقيقتك، ورفع الحجاب عن الجمال والجلال والكمال الإلهى، بقدر ما وهب الله للعبد من عيون الكشف اللائق بعبد ممنوح، لا بقدر الجناب المقدس تنزه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ الزمر ٦٧، وإنما هو قبس من لوامع جمال الفيض الأقدس، وبوارق لوامع جلال الكمال المقدس، قال سبحانه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ الصافات ١٦٤، هذا نذر مما يواجه به العبد المؤمن فى صلاته من مقامات القرب، ومشاهد الحب.

أسرار وأحوال وأنوار

وأما ما يعطاه العبد المصلى من أسرار المراقبة بصلاته، فإنه شهود نعيم ملكوتى، أو عذاب ملكوتى، فتكون تلك المشاهد منتجة للفرار من المخالفات والبعد عن المعاصى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ العنكبوت ٤٥، فذكر الله تعالى فى الصلاة الذى هو إقامتها أكبر، لأنه يحصل به الشهود الأكبر للمصلى، الذى ينتج عنه الرضوان الأكبر، وقد فصلت جملاً من البيان فى معاملة المصلين الذين يقيمون الصلاة فى كتاب "معارج المقربين" فمن أحب المزيد فليراجعه.

وهناك أسرار وأحوال وأنوار تمنح فضلاً للقلوب، لا ترسم بالعبارة ولا تبين بالكتابة، تجعل مقيم الصلاة على قلب رسل الله السابقين صلوات الله وسلامه عليهم، فينال كل مقيم للصلاة قسطاً وافر من مقام رسول من رسل الله صلوات الله عليهم، فقد يكون على قلب سيدنا عيسى عليه السلام، أو قلب سيدنا موسى عليه السلام، أو على قلب سيدنا الخليل الأكبر ﷺ، كل ذلك فضل الله يتفضل به على من وفقه وأقام بين يديه، لم يقمه سبحانه إلا لمحبوب مراده، فقد يجتمع فى المسلمين عشرات من الملايين على قلوب الرسل صلوات الله عليهم، ويجمع الله لهم أسرار الرسل وأنوارهم وأحوالهم، فيقيمهم الله تعالى مقام رسله دعاة إليه، منهم من

يمنحه لسان العبارة فيجذب القلوب بأنوار أقواله، ويسكر النفوس بسحر بيانه، ومنهم من يوده الله بالكرامات من مشكاة الأنوار التى هى سر معجزات من هو على قلبه.

كل ذلك لأن الإسلام هو دين الله حقاً، وأن الله تعالى يهب للعاملين بوصاياه أنوار وأسرار الرسل السابقين جميعهم، وكم ترى فى المسلمين فى كل زمان كثيرين يكرمهم الله بشفاء المرضى وإبراء الأبرص وإحياء القلوب الميتة، وتنويع الأفكار بالحال أو بالمقال أو بالدعاء، وبعضهم يفنى عن مراده بمراد الحق وعما سوى الحق، حتى يظهره الله به سبحانه نوراً لخلقه، فقد يقهره حاله فيقول للشئ كُن فيكون، إحياء للسُنة وإقامة لحجة الله على خلقه، وهذا يستحيل أن يوجد لأهل الأديان الأخرى لأنهم ليسوا على الحق، ولو أراد الله هدايتهم لشرح صدورهم للإسلام، ولكن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء.

وقد اتضح الحق جلياً، وقامت حجة الله على الخلق أجمعين، وليس لأحد من الخلق على الله حجة، والله تعالى أسأل أن يمنحنى وإخوتى جميعاً الإخلاص لذاته العلية، والصدق فى المعاملة، والحب الخالص لجنابه العلىّ، والرضاء الكامل عنه سبحانه، والتوفيق لما يحب ويرضى، إنه على كل شئ قدير.

الزكاة والصدقة

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ البقرة ٢٦١، وقال ﷺ: (حصّنوا أَمْوَالَكُمْ بالزَّكاةِ وداوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدقةِ وَأَعِدُّوا لِلْبلاءِ الدَّعَاءَ)، وقال ﷺ: (هَلَكَ الْأَكْثرُونَ إِلاَّ مَنْ قَالَ بِالْمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا)، ومعلوم أن إنفاق المال فى الخيرات أحد أركان الدين، والتكليف به بعد القيام بما يرتبط به من مصالح البلاد والعباد وبعد الخلات والفاقات، ومعلوم أن المال محبوب الخلق، وهم مأمورون بحب الله عز وجل، ويدعون الحب بنفس الإيمان، فجعل بذل المال معياراً لحبهم، وامتحاناً لصدقهم فى دعواهم، فإن المحبوبات كلها تبذل لأجل المحبوب الأغلب حبه على القلب، فانقسم الخلق فيه على قدر مراتبهم:

١ فمنهم الأقوياء: وهم الذين أنفقوا جميع ما ملكوا ولم يدخروا لأنفسهم شيئاً، فهؤلاء

صدقوا ما عاهدوا الله عليه من الحب، كما فعل سيدنا أبو بكر الصديق إذ جاء بماله كله فقال له ﷺ: (ماذا أبقيت لنفسك؟فقال:الله ورسوله)، وقال لسيدنا عمر رضي الله عنه: (وماذا أبقيت لنفسك؟ قال: مثله) أى مثل ما أتيت به، فقال ﷺ: (بينكما مثل ما بين كلمتيكما).

٢ ومنهم المتوسطون: وهم الذين لم يقدروا على إخلاء اليد عن المال دفعة واحدة، ولكن أمسكوه لا للتنعم بل للإنفاق عند ظهور محتاج إليه، فهم يقنعون فى حق أنفسهم بما يقويهم على العبادة وإذا عرض محتاج بادروا إلى سد خلته وحاجته، ولم يقتصروا على قدر الواجب من الزكاة وإنما غرضهم الأظهر فى الإمساك ترصد الحاجات.

٣ ومنهم الضعفاء: وهم المقتصرون على آداء الزكاة الواجبة، فلا يزيدون عنها ولا ينقصون منها.

فهذه درجاتهم، وبذل كل واحد منهم على مقدار حبه لله، ومن لا يقدر إلا على أداء الواجب فليجتهد حتى يزيد على الواجب ولو شيئاً يسيراً، فإن مجرد الواجب حد البخلاء، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ محمد ٣٧، فجاهد نفسك يا أخى حتى لا ينقضى عليك وقت إلا تتصدق فيه بشئ وراء الواجب ولو بكسرة خبز لترفع بذلك عن درجة البخلاء، فإن لم تملك شيئاً فليست الصدقة كلها فى المال، ولكن كل كلمة طيبة وشفاعة ومعونة فى حاجة وعيادة مريض وتشييع جنازة، وكل ما تقدر عليه من جاه ونفس وكلام لتطييب قلب مسلم يكتب لك صدقة.

المحافظة على الزكاة والصدقة

وحافظ فى زكاتك وصدقتك على خمس أمور.

الأول: الإسرار، فإن فى الخبر: (إن صدقة السر تطفئ غضب الرب)، والذى يتصدق بيمينه بحيث لا تعلم شماله هو أحد السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ البقرة ٢٧١، وبذلك تتخلص من الرياء فإنه غالب على النفس، وهو مهلك ينقلب فى القلب إذا وضع الإنسان فى قبره فى صورة حية،

أى يؤلم إيلام الحية، والبخل فى صورة عقرب، والمقصود فى كل الإنفاق الخلاص من رذيلة البخل، فإذا امتزج به الرياء كان كأنه جعل العقرب غذاء الحية، فما تخلص من العقرب ولكن زاد فى قوة الحية، إذاً كل صفة من الصفات المهلكات فى القلب إنما غذاؤها وقوتها فى إجابتها إلى مقتضاها.

الثانى: أن تحذر من المن، وحقيقته أن ترى نفسك محسناً إلى الفقير متفضلاً عليه، وعلامته أن تتوقع منه شكراً، أو تستنكر تقصيره فى حقك ومماأته عدوك استنكاراً يزيد على ما كان قبل الصدقة، فذلك يدل على أنك رأيت لنفسك عليه فضلاً، وعلاجه أن تعرف أنه المحسن إليك بقبول حق الله منك، فإن من أسرار الزكاة تطهير القلب وتزكيته عن رذيلة البخل وخبث الشح، ولذلك كانت الزكاة مطهرة، إذ بها حصلت الطهارة، فكأنها غسالة نجاسة، ولذلك ترفع رسول الله ﷺ وأهل بيته عن أخذ الزكاة، وقال عليه الصلاة والسلام: (إنها أوساخ أموال الناس)، وإذا أخذ الفقير منك ما هو طهرة لك فله الفضل عليك، أرأيت لو كان فصاداً فصدك مجاناً وأخرج من باطنك الدم الذى تخشى ضرره فى الحياة الدنيا كان الفضل لك أم له؟ فالذى يخرج من باطنك رذيلة البخل وضررها فى الحياة الدنيا والآخرة أولى بأن تراه متفضلاً.

الثالث: أن تخرجه من أطيب أموالك وأجودها، قال الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ النحل ٦٢، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ البقرة ٢٦٧، وقال ﷺ: (إن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب) يعنى الحلال، فإن المقصود من هذا إظهار درجة الحب، والإنسان يؤثر الأحب إليه والأنفس دون الأخس.

الرابع: أن تعطى بوجه طلق مستبشر وأنت به فرحان غير مستكره، قال رسول الله ﷺ: (سبق درهم مائة ألف)، وإنما أراد ما يعطيه عن بشاشة وطيب نفس من أنفس ماله وأجوده، فذلك أفضل من مائة ألف مع الكراهة.

الخامس: أن تتخير لصدقتك محلاً تزكوا به الصدقة، وهو المتقى العالم الذى يستعين بها على طاعة الله عز وجل وتقواه، أو الصالح الفقير ذا الرحم، فإن لم تجتمع هذه الأوصاف.

فتزكو الصدقة بآحادها أيضاً، ورعاية الصلاح أصل الأمور، فما الدنيا إلا البلغة للعباد وزاد لهم إلى المعاد، فليصرف إلى المسافرين إليه المتخذين هذه الدار منزلاً من منازل الطريق، قال رسول الله ﷺ: (لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى).

هذا الركن الذى هو الزكاة هو العبادة المالية الصرفة، ولم تكن الزكاة بهذا التفصيل فى أنواع الأموال والمستحقين فريضة على ما أعلم فى غير ديننا، وذلك لأن الإسلام جعل كل فرد من المسلمين لكل فرد ككل عضو من الجسد لكل عضو، قال ﷺ: (مثل المؤمنين فى تعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه اشتكى كله)، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحج ٧٨، فجعل لنا سبحانه الأرض مسجداً وتراباً طهوراً، وأحل لنا الغنائم، وجعل الزكاة من كل أنواع الأموال، وعمم النفع بها لأنواع من الناس حتى ظهر سر قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات ١٠، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ آل عمران ١٣٤.

من كلام الله سبحانه وكلام رسول الله ﷺ يظهر لنا مكانة كل مسلم فى المجتمع الإسلامى، ومكانة كل فرد من المسلمين، ومن فتح الله قفل قلبه ففقه سر فرضية الزكاة يعلم حق العلم أن العمل فى الدنيا عمل لله تعالى، وقيام بفرض عليه لإخوته المسلمين.

كشف شئ من رموز الزكاة

وإليك كشف شئ من رموز الزكاة:

١ الله سبحانه وتعالى يبين لنا أن المجتمع الإسلامى عائلة واحدة، يدلى نسبهم إلى أب واحد هو رسول الله ﷺ، وأزواجه رضى الله عنهم أمهاتهم، وكما تجب النفقة على الغنى للفقير من والديه إذا عاقه عن العمل مرض ظاهر أو فساد فى قوة العقل، فكذلك يجب على الغنى أن ينفق على أخيه فى النسب الإسلامى بقدر ما أمره الله سبحانه وتعالى، فيكون الغنى يبر والده الأعظم رسول الله ﷺ فى ابنه الذى هو أخوه المسلم، قال ﷺ: (أدخل الإسلام بلالاً فى نسبى وأخرج الكفر أبا لهب من نسبى)، وقال ﷺ (سلمان منا أهل

البيت)، فالمسلمون أبناء رجل واحد هو رسول الله ﷺ، والغنى من المسلمين هو أخ الفقير وكنزه وخزينته، فلا يرضى أن يجوع أخوه وهو شبعان لأن ذلك ليس من أخلاق المؤمنين، فإن الغنى عارية فلعله يأتى عليه يوم وهو فقير فيتمنى أن يعينه إخوانه، وما كان يتمنى الفقير منه المعونة.

٢ إن تأدية الزكاة تلقى المحبة فى قلوب الفقراء، فينال منه عواطف تلك القلوب المتوجهة إلى علام الغيوب، ومقبول دعاة تلك الألسنة المبتهلة إلى الله تعالى، وحب تلك النفوس التى ترى أنك يا أخى بإعطائك الزكاة إياهم نجيتهم من آلام الجوع والعرى، فيكون الفقراء لك زينة فى الرخاء، ودروعاً وسيوفاً فى الشدة.

٣ إنك يا أخى إذا أخرجت الزكاة طيبة بها نفسك، وعلمت أن هذا العمل فرض عليك اعتقدت أن المال لله يتصرف فيه كيف يشاء، فتكون وفيت بالبيع الذى بعته لله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ التوبة ١١١، وتكون بنص تلك الآية الشريفة ممن بشرهم الله تعالى بالجنة.

٤ بإخراجك الزكاة طيبة بها نفسك تعيش مطمئن القلب من خوف مصيبة أو بلية، صحيح البدن من خوف ألم أو من مرض، وذلك لأنك بإخراجك الزكاة يحصل لك انشراح صدر لاعتقادك أنك طهرت مالك، وحصنت نفسك بتأدية الزكاة، ومن يؤدى الزكاة على الوجه الذى أمر الله شاعراً بالفقراء والعطف على المسكين، فلا شك أنه يكون رحمانياً لا يظلم الناس لا فى بيع ولا فى شراء، ولا يسئ جاراً له، ولا يقطع ذا رحمه، ولا يعق والديه، ولا يسعى فى سوء أو فساد بين الناس.

وللزكاة أسرار غامضة يشهدها من أقامه الرب سبحانه خليفة عنه، حتى يكون المشاهد فى إخراج الزكاة خليفة عن ربه فى الإعطاء، عبداً مطيعاً لمولاه، وعاملاً مخلصاً من عمال الله، وعبداً مسكيناً فقيراً وهبه الله خير مواهبه، وواجهه بأجمل مواجهاته العلية، وتلك الأسرار لا تفى بها عبارة المعبرين، ولكنها نعمة من الله تعالى سر قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ البقرة ٢٨٢، وقوله ﷺ: (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم)، والعارف إذا أشار للمريد

السالك كانت الإشارة أفصح من العبارة له، قال ﷺ: (المؤمن يكفيه قليل الحكمة).

تزكية النفس

وهناك نوع آخر من أنواع الزكاة وهى تزكية النفس: قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ المؤمنون ٤ وقال سبحانه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ الأعلى ١٤-١٥، وقال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝﴾ الشمس ٧-٩.

تزكية النفس فى الحقيقة الأصل الذى يؤسس عليه الأصول وتقوم به الفروع، ومن جاهد نفسه وهواه فى ذات الله بلغ غاية مناه، ومن أهمل تزكية نفسه كان كالحيوان الأعجم وإن عمل كل القربات، فهو إنما يقلد غيره كالقردة أو النسانيس ما دام لم يجتهد فى صفاء جوهر نفسه وتطهيرها من نجاستها، ومن زكى نفسه عرفها، ومن عرف نفسه عرف ربه.

وقد فصلتُ طرق تزكية النفس وتصفية جوهرها وعلاجها من أمراضها لإعادة الصحة عليها، والمعدات التى تحفظ الصحة عليها فى مختصرنا هذا فى باب الغرض من العبادة، وفى كتاب "معارج المقربين" فى قسم علوم النفس، وفى كتاب "شراب الأرواح" إلى آخره، فأكتفى فى هذا المختصر بتنبيه أخى إلى العناية بتزكية نفسه حتى يمكنه أن يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويحج البيت ويصوم رمضان، ويقوم لله فى كل ما أوجبه عليه مشاهداً أسرار حكمة أحكامه، وغوامض ما تعبدنا سبحانه وتعالى به، والله أسأل أن يمنحنا الفقه والحكمة والمعونة على طاعته وشكره وذكره إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الصيام

الصيام هو الفريضة التى هى ترك فى الحقيقة، وهو العمل الروحانى الذى يصير الإنسان فيه كالملائكة الروحانيين لترك ضروريات الحياة الجسمانية ولوازم النفس الحيوانية، وهو رمز يشير إلى الإنسان حيوان وملك، فهو بقوته الحيوانية يعمل أعمال البهائم، وبقوته الملكية يعرف الله ويعبده ويتشبه بسكان ملكوته الأعلى، فيترك لوازم قواه الحيوانية بالصوم ليتذكر

قوته الملكية، ولتطهر نفسه من كثافة التوسع فى الأعمال الحيوانية، فإن النفس يقوى طمعها وميلها إلى الحرص والأمل والحماقة والخيانة وبغض بنى نوعه كلما توسعت فى كل ما يقوى الحيوانية، ويكون بذلك بعيداً عن رتبة الإنسان قريباً من الأنعام لتشبهه بها، فإذا قلل من ضروريات حياته الحيوانية تشبه بحياته الملكية من الصوم والنفقة كان أشبه بالملائكة منه بالحيوان، وكان الصيام تزكية لنفسه وشفاء لها من أمراضها وصفاء لجوهرها، حتى تتكمل بكمالها الحقيقى الذى تكون به فى مقعد صدق عند مليك مقتدر تخدمها الملائكة.

الصوم عبادة وشفاء وتزكية

فالصوم عبادة من حيث أنه فرض فرضه الله، وشفاء من حيث أنه يرد للنفس صحتها، وتزكية من حيث أنه جلاء للنفس من التطرف عن الحالة الوسطى التى هى الفضيلة، وبه تتجمل النفس بالرحمة والصلة والبر والإحسان والتواضع، فيكون الصائم عبداً عاملاً لله بتركه ما نهاه الله عنه من الأكل والشرب وملامسة النساء مما أباحه الله له فى غير رمضان، فيكون متجملاً بجمال الروحانيين، ومتخلقاً بأخلاق الله من الرحمة والعاطفة والإحسان والود والشفقة، ومجاهداً نفسه فى ذات الله بحبسها عن شهواتها، فيكون له بإطاعة الأمر النعيم المقيم، وبالتشبه بالروحانيين مشاهدة ملكوت الله، وبالتخلق بأخلاق الله نعيم النظر إلى وجهه الكريم سبحانه. فما أيسر ما ترك وما أعظم ما نال.

وقد شرحت أركان الصوم وسننه وآداب الصائمين وتنزيه الصوم فى كتاب "أصول الوصول" وكتاب "معارج المقربين" ولكن رغبة فى الخير لأخى زودنى الله وإياه بفضله العظيم ورحمته أحببت أن أبين له مزيداً فى مختصرى هذا.

قال رسول الله ﷺ يقول الله سبحانه: (كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به)، وقال عليه الصلاة والسلام: (لكل شئ باب وباب العبادة الصوم)، وإنما كان الصوم مخصوصاً لأنه عملان عظيمان: أحدهما كف النفس، وهو عمل سرى لا يطلع عليه أحد غير الله تعالى، لا كالصلاة والزكاة وغيرهما.

والثانى: أنه قهر لعدو الله، فإن الشيطان هو العدو، ولن يقوى العدو إلا بواسطة

الشهوات، والجوع يكسر جميع الشهوات التى هى آلة الشيطان، فلذلك قال عليه الصلاة والسلام، (إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجارى الشيطان بالجوع)، وهو سر قوله ﷺ: (إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنان وغلقت أبواب النيران وصفدت الشياطين، ونادى مناد: يا باغى الخير هلم، ويا باغى الشر أقصر).

مقدار الصوم وأسراره

واعلم أن الصوم بالإضافة إلى مقداره على ثلاث درجات، وبالإضافة إلى أسراره على ثلاث درجات، أما درجات مقداره فأقلها الاقتصار على شهر رمضان، وأعلاها صوم داود عليه السلام؛ وهو أن تصوم يوماً وتفطر يوماً، ففى الخبر الصحيح أن ذلك أفضل من صوم الدهر وأنه أفضل الصيام، وسره أن من صام الدهر صار الصوم له عادة فلا يحس بوقعه فى نفسه بالانكسار، وفى قلبه بالصفاء، وفى شهواته بالضعف، فإن النفس تتأثر بما يرد عليها لا بما مرنت عليه فلا يبعد هذا وإن الأطباء أيضا ينهون عن اعتياد شرب الدواء وقالوا: من تعود هذا لم ينتفع به إذا مرض إذ يألفه مزاجه فلا يتأثر به، واعلم أن طب القلوب قريب من طب الأبدان، وهو سر قوله ﷺ لعبد الله بن عمرو رضى الله عنهما لما كان يسأله عن الصوم فقال عليه السلام: (صم يوماً وافطر يوماً، فقال: أريد أفضل من ذلك، فقال ﷺ: لا أفضل من ذلك) ولذلك لما قيل لرسول الله إن فلاناً صام الدهر فقال ﷺ: (لا صام ولا أفطر)، كما قالت عائشة رضى الله عنها لرجل كان يقرأ القرآن بهذرمة: إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت.

وأما الدرجة المتوسطة: فهو أن تصوم ثلث الدهر، وإن صمت الاثنين والخميس وأضفت إليهما رمضان، فقد صمت من السنة أربعة أشهر وأربعة أيام وهو زيادة على الثلث، لكن لا بد أن ينكسر يوم من أيام التشريق ومرجع الزيادة إلى ثلاثة أيام ويتصور أن ينكسر فى العيدين يومان فتكون ثلاثة أيام، فترجع الزيادة إلى يوم واحد، فتأمل حسابه تعرفه، فلا ينبغى أن ينقص عن هذا القدر صومك، فإنه خفيف على النفس وثوابه جزيل.

وأما درجات أسراره فثلاث: أدناها أن يقتصر على الكف عن المفطرات ولا يكف جوارحه عن المكاره، ذلك صوم العموم وهو قناعتهم بالاسم. الثانية: أن تضيف إليه كف

الجوارح فتحفظ اللسان عن الغيبة والعين عن النظر إلى الزينة وكذا سائر الأعضاء. الثالثة: أن تضيف إليه صيانة القلب عن الفكر والوسواس وتجعله مقصوراً على ذكر الله عز وجل، وذلك صوم الخصوص، وهو الكمال.

ثم للصيام خاتمة بها يكمل، وهو أن يفطر على طعام حلال لا شبهة فيه، وألا يستكثر من أكل الحلال بحيث يتدارك ما فاته صحوة فيكون قد جمع بين أكلتين دفعة واحدة، فتثقل معدته وتقوى شهوته، ويبطل سر الصوم وفائدته، ويفضى إلى التكاسل عن التهجد، وربما يستيقظ قبل الصبح، وكل ذلك خسران، وربما لا توازيه فائدة الصوم.

هذا ما كان عليه السلف الصالح، وقد بينت أركان الصوم وفرائضه فى الكتب السابقة فأكتفى هنا بما ألمعت إليه، والله سبحانه يوفق إخوتى المؤمنين للقيام بأركان الشريعة على وجهها الأكمل، وأن يمنحنى وإياهم مقام المراقبة فى الأعمال حتى لا يحصل منا تقصير يفسد العمل، ولا غفلة تنقص فضله، ولا أغراض ولا علل تجعله لغير الله تعالى إنه مجيب الدعاء.

الحج

تقدم تعريفه وأركانه ووصف الحاجين بيت الله تعالى فى كتاب "أصول الوصول" وكتاب "معارج المقربين" بما أغنى عن إعادته هنا، ولكن لابد من الإلماع إلى المزيد من مشاهد الحج حتى يكون هذا المختصر وافياً بالغرض المطلوب بمشيئة الله تعالى.

لما كانت الأحكام الشرعية كلها لا يمكن أن يقوم بها العامل على وجهها الأكمل إلا إذا كان عاملاً بقلبه وجسمه، ولما كان كل ركن من أركان الأحكام الشرعية للقلب فيه عمل خاص وملاحظات خاصة، لا يمكن أن يكون العمل كاملاً شرعاً إلا باستيفاء تلك المعانى، ولو أن المسلم حرك جسمه بتأدية الأحكام الشرعية مع غفلة قلبه عن الاستحضار الذى يتمثل فيه لمن العمل، ولم العمل، ومن هو العامل، وما الغاية الباعثة عليه؟ كان العمل ناقصاً أو مردوداً لعدم استيفاء شروطه شرعاً.

وهذا لغفلة القلب فإن الأعمال البدنية صور ميتة، وإنما حياتها وروحها بالإخلاص فيها.

والحج هو الركن المالى البدنى الروحانى، أما كونه بدنياً فلانتقال الجسم من مكان إلى مكان، وأما كونه مالياً فلبذل الأموال فى النفقة على نفسه فى زاده وراحلته، وأما كونه روحانياً فلأن الحاج قاصد ربه بانتقاله، فهو لا يقطع مرحلة كونية إلا تقطع الروح مرحلة من مراحلها حتى تصل إلى جناب القدس الأعلى، ولهذه المعانى كلها أشار الله تعالى إلى أن من توفرت لديه معدات الحج وأهمله كان كأنه كفر، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ آل عمران ٩٧، أى ومن كفر بترك الحج بعد الاستطاعة فإن الله غنى عنه وعن عمله، فالحج ظاهره انتقال إلى مكة المكرمة، وباطنه فرار من الدنيا إلى الملكوت الأعلى بالروح، إنما يشهد تلك المعانى من عمل بما علم عملاً مطابقاً لسُنة رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم).

من مشاهد الحج

ومن خرج من بيته مهاجراً إلى الله، موقناً أنه سيزول البين من البين، وتقع عين بصيرته على جمال مولاه العلى، كيف يكون حاله فى سيره؟ ولا أشك أنه يكون فى أرفع درجات الشوق إلى مولاه، وأكمل أحوال الخشوع والرهبة من ربه الذى خلقه ودعاه إلى حضرته العلية فلباه، لا تخطر على قلبه الدنيا لاستغراقه فى الشوق إلى الله، فلا ينتقل خطوة إلا ويشهد مشاهد تنمو بها صبوته وتقوى حالته وتجدد بها رهبته.

يشهد من كل ركن من أركان الحج مشاهد ملكوتية، فيشهد فى مقام الإحرام إخلاص القلب من كل حظ وهوى فى التوجه إلى الله، وتطهير السر من كل علة وغرض لمواجهة الله، وقطع كل علاقة بينه وبين أهله وولده إقبالاً على الله، ورغبة فيما عند الله، وحسن ثقة بولاية الله لهم، وهكذا لا ينتقل من ركن إلى ركن ولا مكان إلى مكان إلا أشهده الله ملكوت كل مكان، وأسرار كل عمل من الأعمال، حتى إذا وقف على عرفات نفسه، فعرف ربه ورجع إلى بيت الوجهة بيت ربه الحرام، منيباً إليه بعد المعرفة، ذاكراً جنابه العلى، لا يشغله عن ذكر الله ذكر والد ولا ولد، بل ولا دنيا ولا آخرة، وعند ذلك يخرج من ذنوبه كيوم ولدته

أمه، ثم يتجلى الغفور التواب فيمنحه بدل كل سيئة حسنة، فيرجع وهو كيوم ولدته أمه مطهراً من الذنوب، وهو كمن عبد الله بأخلص نية طول عمله سر قوله تعالى: ﴿إِفَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الفرقان ٧٠.

ولولا أن هذا المختصر وضعته لأبين للناس أجمعين لا فرق بين المسلم وغيره أن الإسلام دين سمح، أكتفى بهذا النذر اليسير، وأذكر ما لا بد من ذكره فى ركن الحج مما يحتاج إليه أخى المسلم، ومن ظهرت له جمالات الإسلام علم أن ما عليه القوم من الأديان الأخرى محض ضلال وتعصب قبيح للآباء، ذلك أمر بديهى إذا نظر نظرة مريد نجاة نفسه، وراغب فى الحق، ومنزه عقله وفكره عن أن يقبل غير ما يتضح نوره ويظهر دليله.

أعمال الحج

قد بينتها مفصلة فى كتابى "أصول الوصول" و"معارج المقربين" وهنا أبين ما لابد منه للسالك المخلص، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ آل عمران ٩٧، وقال ﷺ: (من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو إن شاء نصرانياً)، وقال ﷺ: (بنى الإسلام على خمس...) الحديث. وللحج أعمال ظاهرة ذكرناها فيما سبق لنا من الكتب، ونريد أن ننبهك فى هذا المختصر إلى آداب دقيقة وأسرار باطنة.

آداب الحج

أما الآداب فسبعة

١ أن ترتاد للطريق رفيقاً صالحاً ونفقة طيبة حلالاً، فالزاد الحلال ينور القلب، والرفيق الصالح يذكر بالخير، ويزجر عن الشر.

٢ أن يخلى يده عن مال التجارة لكى لا يتشعب فكره، وينقسم خاطره، ولا يصفو للزيارة قصده.

٣ أن يوسع فى الطريق بالطعام، ويطيب الكلام مع الرفقاء والمكارى.

٤ أن يترك الرفث والجدال والتحدث بالفضول فى أمر الدنيا، بل يقصر لسانه – بعد مهمات حاجاته – على الفكر وتلاوة القرآن.

٥ أن يركب راحلة دون المحمل، ويكون رث الهيئة أشعث أغبر غير متزين، بل على هيئة المساكين، حتى لا يكتب فى جملة المترفين.

٦ أن ينزل على الدابة أحياناً ترفيهاً للدابة، وتطييباً لقلب المكارى، وتخفيفاً للأعضاء بالتحرك، ولا يحمل الدابة ما لا تطيق، بل يرفق بها ما أمكن.

٧ أن يكون طيب النفس بما أنفق من نفقة، وبما أصابه من تعب وخسران، وأن يرى ذلك من آثار قبول الحج، فيحسب الثواب عليه.

أسرار الحج

وأما أسراره فكثيرة نرمز منها إلى أمرين:

الأمر الأول: أنه وضع بدلاً من الرهبانية التى كانت فى الملل كما ورد به الخبر، فجعل الله سبحانه الحج رهبانية لأمة سيدنا محمد ﷺ، فشرف البيت العتيق وأضافه سبحانه على نفسه ونصبه مقصد العباد، وجعل مع ما حواليه حرماً لبيته تفخيماً لأمره، وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمه، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره، ووضعه على أمثال الملوك ليقصده الزوار من كل فج عميق، ضعفاء غبراء متواضعين لرب العالمين خضوعاً لجلاله واستكانة لعزته، مع الاعتراف بتنزهه عن أن يكتنفه بيت أو يحويه مكان، ليكون ذلك أبلغ فى رقهم وعبوديتهم لذاته جل جلاله، ولذلك كلفهم سبحانه أعمالاً غريبة لا تناسب الطبع والعقل، ليكون إقدامهم بحكم محض العبودية، وامتثال الأمر من غير معاونة باعث آخر، وهذا سر عظيم فى الاستعباد، ولذلك قال ﷺ: (لبيك بحجة حقاً تعبداً ورقاً).

الأمر الثانى: أن هذا السفر وضع على مثال سفر الآخرة، فليتذكر المريد بكل عمل من أعماله أمراً من أمور الآخرة موازياً له، فإن فيه تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر المستبصر،

فتذكر من أول سفرك عند وداعك أهلك وداع الأهل فى سكرات الموت، ومن مفارقة الوطن الخروج من الدنيا، ومن ركوب الجمل ركوب الجنازة، ومن الالتفاف فى أثواب الإحرام الالتفاف فى أثواب الكفن، ومن دخول البادية إلى الميقات ما بين الخروج من الدنيا إلى ميقات القيامة، ومن هول قطاع الطريق سؤال منكر ونكير، ومن سباع البوادى عقارب القبر وديدانه، ومن انفرادك عن أهلك وأقاربك وحشة القبر ووحدته، ومن التلبية إجابة داعى الله عز وجل يوم البعث.

وكذلك فى سائر الأعمال، فإن فى كل عمل سراً وتحته رمزاً يتنبه له كل عبد بقدر استعداده للتنبه بصفات قلبه، وقصور همه على مهمات الدين، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمنحنا المعونة والتوفيق لعمل ما يحب، ويجعل لنا نوراً نمشى به فى الناس، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المعاملات

معاملة النساء وآداب عشرتهن

الإنسان مفطور على الضرورة والمثنوية

خلق الله الإنسان ليكون خليفة عنه جل جلاله، وسخر له ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه، خلق الله سبحانه ملكه بيد واحدة، وملكوته بيد واحدة، والإنسان بيديه، ليظهر جل جلاله بعجائب قدرته وغرائب حكمته ظهوراً تقوم به الحُجة على أنه القادر الحكيم سبحانه، المنزه عن الزوجة والولد والوالد، خلق سبحانه الإنسان على صورة الرحمن، فهو جل جلاله الواحد الأحد، المنفرد بالأحدية، المنزه عن الكثرة والاحتياج، فهو سبحانه وتعالى المنفرد بالواحدية دون غيره، والإنسان وإن كان خلقه الله على صورة الرحمن، إلا أنه جل جلاله فطره على الضرورة والمثنوية، فالله هو الغنى الذى لا يفتقر إلى شئ.

والإنسان يغنى ويفتقر، ويعز ويذل، ويقوى ويضعف، ويقدر ويعجز، ويحيا ويموت، ويعين ويعان، ويعلم ويجهل، ويضل ويهتدى، قهره الله تعالى على حقيقة العبودية وإن نسيها، وجعله مضطراً فى كل نَفَس إلى عناية ومعونة وإن غفل عن نشأته الأولى والآخرة، ومن دلائل احتياجه واضطراره وافتقاره أن خلق له بطناً يأكل ويتغوط، وجعله يقهر بالنوم فى كل يوم، وجعل جسمه أصغر الأجسام، قال سبحانه: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ غافر ٥٧، فهو فوق الملائكة قدراً إذا زكت نفسه، وأسفل من الشياطين إذا دساها.

بين له سبحانه وتعالى سبيل الخير والشر، وأمره بما فيه خيره فى الدنيا والآخرة، ومنحه الحرية والإرادة، قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الكهف ٢٩، ومن دلائل اضطراره وحجج احتياجه أن خلق له من نفسه زوجة، هى هو فى الحقيقة ونفس الأمر، ولذلك جعل له أُنساً بها وسكوناً إليها، فهى كالأرض للإنسان وهو كالبذر لها، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ الأعراف ١٨٩.

فالمرأة حُجة على أن الرجل عبد الله، والرجل حُجة على أن المرأة أمَة لله، لما لكل نوع من الحاجة إلى الآخر، الدالة على الذل والاحتياج، فهى محل أنسه وهو محل أنسها، وهى أرض الأشجار الإنسانية، وبستان مشاهد عجائب القدرة والحكمة العلية، وإنى لولا أنى وضعت هذا المختصر للأحكام الشرعية الظاهرة، لكشفت الحجاب عن المشاهد العلية التى يشهدها الزوج فى زوجته، من الرحمة والعناية والمشاركة فى مرافق الحياة، والعفة والصون من مخالفة الله تعالى، ومن الآيات التى لا يشهدها إلا الصديقون، ولكن أفردت لذلك كتاب " اصطلاح الصوفية" وهذا المختصر إنما أمليته ليكون سراجاً منيراً للسالك، ولزمنى أن أبين آداب الزوجية، وما يجب على الزوج لزوجته وعلى الزوجة لزوجها حتى تصفوا الحياة، ويعيش الزوج مقبلاً على الله مستريحاً من شرور زوجته، وتعيش الزوجة مقبلة على الله تعالى فى راحة من عناء زوجها، ليتم المعاملات فى مختصرى هذا، وإن كنت شرحت حسن المعاملات فى غيره.

النكاح فرض مع الحاجة وسُنة على الكفاية

قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ النور ٣٢، وقال ﷺ: (تَنَاكَحُوا تَنَاسَلُوا فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ ٱلْأُمَمَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ حَتَّى بِالسَّقْطِ وَالرَّضِيعِ)، وفى الخبر الآخر عنه ﷺ: (مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِى فَلَيْسَ مِنِّي، وَإِنَّ مِنْ سُنَّتِي النكَاحَ، وَمَنْ أَحبنِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِى)، وفى الخبر المشهور عنه ﷺ: (مَنْ كَانَ ذَا طَوْلٍ فَلْيَتَزَوَّجْ) وفى لفظ آخر: (مَنِ ٱسْتَطَاعَ مِنْكُمُ ٱلْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِنّ فِي الصَّوْمِ لَهُ وِجَاءً).

فأمر الله سبحانه وتعالى المحتاجين وندب المعصومين، فالنكاح فرض مع الحاجة، وسُنة على الكفاية، ثم وعدهم جل شأنه الغنى على الفقر، فالغنى على الغنى يجعله على نحو الفقر من الفقير، فقد يكون فقيراً من الأجر فيغنيه بالأجر، ويكون فقيراً من عدم الحكم فيغنيه بإيجاب الحكم عليه، ويكون فقيراً بالضيعة والشتات وفقد المنزل والأثاث فيغنيه بوجود

ذلك، وأحكمه عز وجل بما عقبه من قوله تعالى وهو الحكيم: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ النور ٣٢، فهو سبحانه واسع، لغناه عن معانى فقرهم، عليم بحالهم وما يصلحهم فيما لا يعلمون على مقادير رتبهم، روى الحسن عن أبى سعيد عن النبى ﷺ: (مَن تَرَكَ التَّزَوُّجَ مَخَافَةَ العَيْلَةِ فَلَيْسَ مِنَّا) وروى عنه ﷺ: (إِذَا أَتَاكُم مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ فَأَنكِحُوه إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)، وفى الخبر: (مَن نَكَحَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأنكَحَ للهِ تَبارَكَ وَتَعالَى ٱسْتَحَقَّ ولايةَ اللهِ تَعَالى)، وهذا أدنى حال تنال به الولاية، لأنها مقامات، لكل مقام عمل من الصالحات.

إلا أنه روى أن بشر بن الحارث رضي الله عنه قيل له: إن الناس يتكلمون فيك، فقال: وما عسى يقولون؟ قيل: يقولون: إنك تارك السنة يعنون النكاح فقال: قل لهم إنى مشغول بالفرض عن السنة. وقال مرة: ما يمنعنى من ذلك إلا آية فى كتاب الله تعالى، قوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِن﴾ البقرة ٢٢٨، ولعلى ألا أقوم بذلك، وكان يقول: لو كنت أعول دجاجة لخفت أن أكون جلاداً على الجسر. هذا يقوله فى سنة عشرين ومائتين والرجال والنساء أحمد عاقبة، فكيف بوقتنا هذا؟!

ترك التزوج أفضل للمريد

فالأفضل للمريد فى مثل زماننا هذا ترك التزوج إذا أمن الفتنة ووثق الحفظ، ولم تنازعه نفسه إلى معصية، ولم تترادف خواطر النساء على قلبه حتى يتشتت همه، أو يقطعه عن حسن الإقبال على الخدمة مسامرة الفكر ومحادثة النفس بأمر النساء، ولم يجمح بصره إلى محظور، ولم يخالط ذكره شهوة تستولى عليه، لأن أول خطايا الفرج شهوة القلب بمسامرة الفكر، وهو معقول الخطيئة، الثانية إنعاظ الفرج عن شهوة القلب وهذا عمل، وقبض الرجل على فرجه منعظاً معصية ثالثة، فإن ظهرت الشهوة من الفرج فهو معصية رابعة، ومس الفرج باليمين مكروه.

فمتى وقعت هذه المعانى فإنها تغير القلوب عن الخشوع، وتدخل عليه النقصان، ومتى لم يبتل العبد بها فإن الخلوة أفضل المعانى، وفيها يجد لذة الوجود وحلاوة المعاملة، ويقبل على

نفسه، ويشتغل بحاله، ولا يهتم بحال غيره فيحمل حاله على حال غيره فيقصر، أو يقوم بحكم آخر فيعجز، ويعالج شيطاناً آخر مع شيطانه، وتنضم نفس أخرى إلى نفسه، وله فى مجاهدة نفسه ومصابرة هواه وعدوه أكبر الاشتغال.

ومنها أن المكاسب قد فسدت فليس ينال أكثرها إلا بمعصية، وهو مسئول من أين اكتسبه وفيم أنفقه، فإن كان كسب من غير حله حسب ذلك عليه، وإن أنفق على هواه لم يحسب ذلك له.

ومنها أن أكثر النساء قليلات الدين والصلاح، والأغلب عليهن الجهل والهوى، فلا يأمن أن ينقاد لأجل هواه فيخسر آخرته، أو يمانعهن فلا ينقدن له فيتنغص عليه عيش دنياه، روى أن الحسن رضي الله عنه قال: والله ما أصبح اليوم رجل يطيع امرأته فيما تهوى، إلا أكبه الله فى النار.

ومنها أن الأغنياء فى مقام الظالمين للفقراء لبخس حقوقهم، وتقصيرهم عما أوجب الله عز وجل عليهم لهم، فإن كان المتأهل فقيراً لقى شدة وجداً وعناء وكداً، ولم يأمن دخول الآفات عليه لأجل عيلته، وقد سئل ابن عمر رضى الله عنهما عن جهد البلاء فقال: كثرة العيال وقلة المال، وقال بعض السلف: قلة العيال أحد اليسارين، وكثرة العيال أحد الفقرين.

وقد جاء فى الأثر: (الوحدةُ خيرٌ من قرينِ السوءِ)، وهو من القرين الصالح على غير يقين فلا يزال اليقين بالشك، فإن أكثر الناس لا صلاح فيهن لغلبة الهوى وحب الدنيا عليهن، وفى الخبر: (مَثَلُ المرأةِ الصَّالحةِ فِى النسَاءِ كَمَثَلِ الغُرَابِ الأعْصَمِ مِن مِائَةِ غُرَابٍ) يعنى أبيض البطن.

وفى وصية لقمان لابنه: يا بنى اتق المرأة السوء فإنها تشيبك قبل المشيب، واتق شرار النساء فإنهن لا يدعون إلى خير وكن من خيارهن على حذر، وقال الله فيهن حين أفشين سر النبى ﷺ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ التحريم ٤، يعنى مالت إلى الهوى فأمرهما بالتوبة للميل إلى الهوى. ثم قال: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ التحريم ٤، يعنى تعاونا، وهما من خير

الأزواج، فما ظنك بمن شاكلته الجهالة واستولى عليه الهوى والضلالة؟ وفى الخبر عنه ﷺ: (مَا أَفْلَحَ قَوْمٌ تَمْلِكُهُمُ آمْرَأَةٌ)، وقال تعالى مخبراً بعداوة بعض الأزواج والأولاد: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ التغابن ١٤، يعنى فى الآخر لانحطاطكم فى أهوائهم، وميلكم إلى وهن آرائهن فصاروا عدواً، كيف وقد تكون المرأة والولد أعدى عدو للرجل اليوم وقبل يوم القيامة إذا خالفهم فى أهوائهم وعمل بالعلم فى أحوالهم، وقد كان إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه يقول: من تعود أفخاذ النساء لم يفلح.

فالوحدة أروح للقلب، وأقل لهم لخفة المؤنة وقلة المطالبة وأمن المنازعة، وسقوط حكم من أحكام الشرع عنه، وقد كان السلف يعملون فى إسقاط الحكم عنهم للعجز عن القيام بها ويغتنمون ذلك، وفى التخلى قلة الاهتمام بالادخار والجمع، وترك المراعاة والتحفظ للمبيت فى البيت، وسقوط المساءلة والاستخبار، وترك التجسس للآثار التى نهى الله ورسوله عنها، إذ لا يأمن ذلك مع الزوجة السوء.

وقد أبيحت العزبة وفضل التعزب لهذه الأمة فى آخر الزمان، وفى خبر: (إِذَا كَانَ بَعْدَ ٱلْمِائَتَيْنِ أبيحت ٱلْعُزْبَةُ لِأمتي، وَلأن يُرَبَّى أَحَدُكُمْ جَرْوَ كَلْبٍ خَيْرٌ مِنْ أَن يُرَبّي وَلَداً) والخبر المشهور: (خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ ٱلْمِائَتينِ الْخَفِيفُ الحاذ الَّذِى لَا أَهْلَ لَهُ وَلَا وَلَدَ) وفى خبر آخر: (يَأتي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ هَلَاكُ الرَّجُلِ عَلَى يَدَى زَوْجَتِهِ وَأَبَويْهِ وَوَلَدِهِ، يُعَيِّرونَهُ بِالفَقْرِ، وَيُحَملُونَهَ مَا لَا يطِيقُ، فَيَدْخُلُ الْمَدَاخِلَ الَّتِي يَذْهَبُ فيهَا دِينُهُ فَيَهْلكُ). وهذا كله لمن لم يخش العنت.

نكاح الأمة خير من العنت

فأما من خاف العنت وهو الزنا فنكاح الأمة حينئذ خير له من العنت، والصبر عن نكاح الأمة خير من نكاحها، وهذا معنى قوله عز وجل فى نكاح الأمة: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ النساء ٢٥، وكذلك إن كثرت الخواطر الردية والوساوس الدنية فى قلبه بذكر النكاح، فشغله ذلك عن فريضة، أو شتت ذلك همه فإن نكاح الأمة أيضاً خير له، على أن نكاح الأمة محرم على من وجد طولاً لحرة.

كراهة الاستمناء وتحريمه

انصرف الناس ذات يوم من مجلس ابن عباس رضى الله عنهما، وبقى شاب لم يبرح فأطال القعود، فقال له ابن عباس: هل لك من حاجة فقال: نعم، لى حاجة استحييت أن أسألكها بحضرة الملأ، قال: سلنى عما شئت، قال: إنى أهابك وأجلك، فقال ابن عباس: إنما العالم بمنزلة الوالد لا حشمة على السائل منه، فمهما أفضت به إلى أبيك فأفض به إلى فإنه لا عيب عليك عندى، فقال: رحمك الله، إنى شاب لا زوجة لى وربما خشيت العنت على نفسى، وربما استمنيت بذكرى فهل لى فى ذلك معصية؟ فأعرض عنه ابن عباس رضى الله عنهما ثم قال: أف وتف، نكاح الأمة خير من الزنا.

وقد جاء فى كراهة الاستمناء وتحريمه والتغلظ فيه أخبار شديدة، روينا أن الله عز وجل أهلك أمة من الأمم كانوا يعبثون بمذاكيرهم، وقد أسنده إسماعيل بن أبان عن أنس بن مالك، وسئل أبو محمد عن النساء فقال: الصبر عنهن ولا الصبر عليهن، والصبر عليهن خير من الصبر على النار، وكذلك قال بعض العلماء: معالجة العزبة خير من معالجة النساء، ولا يصلح التزويج فى هذا الوقت إلا لرجل يدركه من الشبق ما يدرك الحمار، إذا نظر إلى أتان لم يملك نفسه أن يثب عليها حتى يضرب رأسه وهو لا ينثنى، فإن كان الإنسان على مثل هذا الوصف كان التزويج له أفضل، روى عن عكرمة ومجاهد رضى الله عنهما: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ النساء ٢٨، قال: لا يصبر عن النساء.

فضل النكاح والندب إليه

وفى الخبر: (إِذَا تَزَوَّجَ الرجلُ فقد أحرزَ نصفَ دِينِه فَلْيَتَّقِ اللهَ فى الشَّطْرِ الْآخَرِ)، وفى دعاء البراء بن عازب ﷺ: أعوذ بك من شر سمعى وبصرى وقلبى ومنيى. فكأن المنى إذا امتلأ به خرز الصلب فطلب الخروج فخيف منه فساد القلب ومرضه بمنزله الدم إذا كان فى العروق، فإذا تصاعد من الصلب طبخه وغيره فابيض وصار منيا بإذن الله تعالى.

وذكر النساء فى مجلس معاوية ﷺ فذمهن قوم فقال: لا تفعلوا، فما علل المريض، ولا ندب الميت، ولا عمر البيوت مثلهن، ولا احتاجت الرجال إلى مثلهن.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما: لا يتم نُسُك الشاب حتى يتزوج، وكان يجتمع غلمانه لما أدركوا عكرمة وكريبا وغيرهما فيقول: إن أردتم النكاح أنكحتكم، فإن العبد إذا زنى نزع نور الإيمان من قلبه، وقال ﷺ لأبى الزوائد: ما يمنعك من النكاح إلا عجوزاً وفجوراً.

وكان بعض الصالحين يكثر التزوج حتى لم يكن يخلو من اثنتين أو ثلاثة، فعوتب فى ذلك فقال: هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدى الله عز وجل مجلساً أو وقف بين يدى الله موقفاً فى معاملته فخطر على قلبه خاطر شهوة أو فكر فى ذلك؟ فقيل: يصيبنا هذا كثيراً، فقال: لو رضيت فى عمرى كله بمثل حالكم فى وقت واحد لما تزوجت، ثم قال: لكنى ما خطر على قلبى خاطر يشغلنى عن حالى إلا نفذته لأستريح منه وأرجع إلى شغلى، ثم قال: منذ أربعين سنة ما خطر على قلبى خاطر معصية.

وقد كان ابن عباس رضى الله عنهما يقول: خير هذه الأمة أكثرها نكاحاً، وكان سفيان بن عينية يقول: كثرة النساء ليست من الدنيا لأن علياً عليه السلام كان أزهد أصحاب رسول الله ﷺ وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية.

فالنكاح سُنة ماضية، وخلق من أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد كان بعض الصحابة انقطع إلى رسول الله ﷺ يخدمه ويبيت عنده الحاجة إن طرقته فقال له: (أَلَا تَتَزَوَّجْ؟ فقال: يا رسول الله أنا فقير لا شئ لى، وأنقطع عن خدمتك.فسكت عنه ثم عاد عليه ثانية: (أَلَا تَتَزَوَّجْ؟) فقال له مثل ذلك، ثم تفكر الصحابى فى نفسه فقال: والله لرسول الله أعلم بما يصلح دنياى وآخرتى وما يقربنى من الله عز وجل، لئن قال لى الثالثة لأفعلن، فقال له رسول الله ﷺ: (أَلَا تَتَزَوَّجْ؟) قال: فقلت: يا رسول الله زَوِّجْنى، (قال: اذْهَبْ إِلَى بَنِي فُلانٍ فَقُل لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تنكِحُونى فَتَاتَكُمْ)، فقلت: يا رسول الله إنه لا شئ لى، فقال لأصحابه: (اجْمَعُوا لِأَخِيكُمْ وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ)، فجمعوا له وذهب إلى القوم فأنكحوه، فقال رسول الله ﷺ: أَوْلِمْ، فقال: يا رسول الله لا شئ عندى، فقال لأصحابه: اجمعوا لأخيكم ثمن شاة، فجمعوا له وأصلحوا له طعاماً ودعا عليه رسول الله ﷺ وأصحابه)، وحديث أبى سعيد الخدرى ﷺ: (مَنْ تَرَكَ النكَاحَ مَخَافَة العَيْلَةِ فَلَيْسَ مِنَّا).

وقد كان عمر يكثر النكاح ويقول: ما أتزوج إلا لأجل الولد. وقد كانت هذه نية جماعة من السلف يتزوجون لأجل أن يولد لهم فيعيش فيوحد الله تعالى ويذكره،أو يموت فيكون فرطاً صالحاً يثقل به ميزانه، كيف وقد روينا عن رسول الله ﷺ: (إِنَّ الطِفْلَ يَجُرُّ أَبَوَيْهِ بِسِّرِهِ إِلَى الْجَنَّةِ) و(إِنَّ الْمُوْلُودَ يُقَالَ: ادْخُل الْجَنَّةَ، قال: فَيَقِفُ عَلَى بَابِ الْجَنَةِ فَيَظَلّ مُحْبَنْطِّئاً –أى ممتلئاً غيظاً وغضباً – فيقول: لا أدخل إلاَّ وأبواى مَعِي، فيقال: أَدْخِلُوا أَبَوَيْهِ مَعَهُ الْجَنَّةَ) وروينا خبراً غريباً: (إِنَّ الأطفالَ يُجمعون فى موقفِ القيامةِ عند عَرْضِ الخلائقِ للحسابِ، فيُقالُ للملائكةِ: اذهبوا بهؤلاءِ إلى الجنةِ، قال: فيقفونَ على بابِ الجنةِ، قال: فيقولونَ لهم مرحباً بذَرَارِى المسلمين ادخلوا لا حسابَ عليكم، فيقولون: وأين آباؤُنا وأمهاتُنا؟ قال: فتقول الخزنةُ: آباءُكم وأمهاتُكم ليسوا مثلَكم، إنهم كانت لهم ذنوبٌ وسيئاتٌ فهم يُحاسبون عليها ويُطالبون، قال: فيتضاغون ويَضِجُّونَ على باب الجنة ضجةً واحدةً، فيقول الله عز وجل للملائكة وهو أعلم: ما هذه الضجةُ؟ فيقولون: يا ربنا أطفالُ المسلمينَ، قالوا: لا ندخلُ الجنة إلاَّ مع آبائِنَا، فيقول اللهُ عز وجل: تَخَلَّلُوا الجمعَ فخذوا بأيدى آبائِهم فَأَدْخِلُوهُم معهم الجنةَ).

وروينا عنه ﷺ: (خَيْرُ نسائِكم الوَدُودُ الوَلودُ) وقد قيل: إن فضل المتأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد، وإن ركعتين من متأهل أفضل من سبعين ركعة من أعذب، وقال تعالى فى وصف الرسل عليهم الصلاة والسلام ومدحهم: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ الرعد ٣٨، فعد الأزواج والذرية من مدحهم وذكرها فى وصفهم، وكذلك أَلحَقَ بهم أولياءه فى المدح والفضل فى قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الفرقان ٧٤، فسألوا الله عز وجل من فضله.

وكل ما ذكرناه من فضل النكاح يشترك فيه الرجال والنساء، بل هو لهن أفضل وأصوب لسقوط المكاسب عنهن، وقد أمر النبى ﷺ المرأة بالتزوج وندبها إليه وأخبر بفضل الرجل وفضل المتزوجة على العزب فى غير حديث، وقال ﷺ: (لَعَنَ اللهُ المتبتلينَ من الرجالِ الذين يقولون: لا نَتزوَّجُ، ولعن الله المتبتلاتِ من النساءِ اللاَّتى يَقُلْنَ: لا نَتزوَّجُ) بعد ما ذكر من عظيم حق الرجل على المرأة وثقل واجبه حتى قالت المرأة: إذاً لا أتزوجُ أبداً، قال: (بَلَى

تَزَوجَّى فَهُوَ خيرٌ) .

وقد ندب الله تعالى إلى النكاح فى قوله تعالى: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ البقرة ٢٢٣، وفى ﴿أَنَّىٰ﴾ معان يحتمل أن تكون بمعنى متى، أى: متى شئتم ليلاً أو نهاراً، أو بمعنى كيف، أى كيفما شئتم من قيام أو غيره، وإقبال أو غيره، على أن لا يجاوز الحرث.

ثم قال عز وجل: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ البقرة ٢٢٣، قيل: النكاح معطوف به الإتيان وهو أحد الوجوه الثلاثة، لما فيه من فضل الاغتسال من الجنابة، ولما فيه من فضل مباشرة المرأة، وأن المرأة إذا لاعبها بعلها وقبلها كثرت له من الحسنات ما شاء الله، فإذا اغتسلاً خلق الله من كل قطرة ملكاً يسبح الله تعالى إلى يوم القيامة وجعل ثواب ذلك لهما، ولما فى ذلك من التحصين لهما ووضع النطفة فى محلها وفى ذلك فضائل جمة، وقد أمر به رسول الله ﷺ فى قوله: (لِيَتَّخِذْ أحدُكم قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجةً مؤمنةً تُعِيْنُهُ عَلىَ آخرتِهِ).

والوجه الثانى فى قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ البقرة ٢٢٣، قيل: الولد قدموه لآخرتكم، لأنه عمل من أعمالكم كما قال عز وجل: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ الطور ٢١، أى ما نقصناهم أولادهم، أى جازيناهم بهم وجعلناهم مزيداً فى حسناتهم لأنهم من أعمالهم وأكسابهم، كما قال عز وجل: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ المسد ٢، يعنى ولده، ففى تدبير ذلك أن الولد يغنى المؤمن فى الآخرة، كما يغنى المال عنه إذا أنفقه فى سبيل الله تعالى، وفى الخبر: (وَلدُ الرجلِ من كسبِهِ، فأحلَّ ما أكلَ من كسبِ ولدِهِ).

والوجه الثالث فى قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ البقرة ٢٢٣، قيل: التسمية عند الجماع، أى اذكروا اسم الله تعالى عنده فذلك تقدمة لكم، وإنه يستحب للمجامع أن يسمى الله عز وجل عند جماعه ويقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الإخلاص ١، قبله.

وإذا كانت المرأة معينة لزوجها على الطاعة، طالبة للتقلل والقناعة، فهى نعمة من الله عليه يطالبه سبحانه بشكرها، قال الله عز وجل: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥ﴾ الأنبياء ٩٠، فعد ذلك من نعمة الله عليه وإحسانه إليه، وروينا عن نبينا ﷺ: (فُضلتُ على آدمَ عليه السلام بخَصْلَتَيْنِ: كانت

له زوجةٌ عوْناً له على المعصيةِ، وأزواجى عوناً لى على الطاعةِ، وكان شيطانه كافراً، وشيطانى مسلماً لا يأمُرُنِي إلاَّ بخيرٍ) فعد ذلك ﷺ فى فضائله.

وإذا كانت المرأة حسنة الوجه، خيرة الأخلاق، سوداء الحدقة والشعر، كبيرة العين بيضاء اللون، محبة لزوجها، قاصرة الطرف، فهذه على صورة الحور العين، قال ﷺ: (خيرُ نسائِكم التى إذَا نظرَ إِليهاَ الرجلُ سَرَّتْهُ، وَإِذَا أمرَها أَطاعَتْهُ، وإذا غاب عنها حَفِظَتْهُ فى نفسِهِ ومالِهِ).

النساء على أوصاف النفس

واعلم أن النساء على أوصاف النفس، فمن عرف صفات النفس عرف بها أوصاف النساء، ومن قاسهن بالتجربة والخبر عرف بذلك صفات النفس، فمنهن المسولة وهى أدناهن، ومنهن الأمارة بالسوء وهى أشرهن، لا تستتر من الأذى، ولا تنأى عن خلق السوء، ومنهن بمنزلة النفس اللوامة وهى من صالح النساء، ومنهن المطمئنة المرضية وهذه هى الصالحة الخيرة الساكنة الراضية.

من وصايا بعض العرب لأبنائهم

وأوصى بعض العرب بنيه فقال: لا تنكحوا من النساء ستاً: أنانة، ولا منانة ولا حنانة ولا حداقة ولا براقة ولا شداقة. تفسير ذلك؛ الأنانة: التى تعصب رأسها كثيراً وتكثر الأنين والتوجع والتشكى. والمنانة: هى التى تمن على زوجها تقول: فعلت بك وفعلت وأنا أفعل وأفعل. والحنانة تكون على وجهين: تكون ذات ولد من غيره فهى تحن إليه، وقد تكون ذات زوج قبله فيحن قلبها إليه. والحداقة هى التى تومى بحدقتها فتشترى كل شئ وتطالب زوجها بما تشتهيه من كل شئ، وقد تلحظ الرجال كثيراً كما يلاحظ بعض الرجال النساء. والبراقة تحتمل تأويلين: أحدهما أن تكون غضوباً فى الطعام فتبرق لقلته أو لسوء خلقها، ولا تكاد البراقة للمأكول تأكل إلا وحدها لشرها، وهى أيضاً تستقل نصيبها من كل شئ، وهذه لغة يمنية، يقال: قد برقت المرأة وبرق الصبى الطعام إذا غضب عليه، والوجه الثانى من

البراقة أن تكون من البريق، تكثر صقال وجهها وخضابه فتتصنع فى بروقه أبداً. وأما الشداقة فهى التى تتشدق بكثرة الكلام، وتكون زربة اللسان مفهومة فى النطق.

وقال بعضهم: لا تنكح من النساء أربعاً وأنكح من سواهن، المختلعة والمبارية والعاهر والناشز.

فالمختلعة هى التى تطلب الخلع من زوجها من غير ما بأس وهو مع ذلك يحبها. والمبارية المباهية لغيرها المفاخرة بأسباب الدنيا، التى تطلب من زوجها ما تباهى به غيرها وتفتخر به على نظائرها. والعاهرة الفاجرة التى تعرف بخليل أو خدن، المذكورة فى قول الله عز وجل: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ النساء ٢٥. والناشز التى تعلو على زوجها فى الفعال أو المقال وفصل الخطاب.

السر فى أن الله تعالى أباح الجمع بين الأربع

إن كان صلاح قلب العبد واستقامة حاله فى العزبة فلا أعدل بالوحدة شيئاً، لأن أقل ما فيها السلامة، والسلامة فى وقتنا هذا فضيلة وغنيمة، وإن تاقت نفسه على التزويج ولم يأمن دواعى الهوى فليتزوج إذا أدى إلى سلامة دينه، وإن لم تتم كفايته بواحدة، ضم إليها أخرى، فإن لم تكن بهما غنيمته وتمام حاله وتحصينه زاد ثالثة، إلى أربع، فإن الأربع مع توقان النفس إلى النكاح وقوة شهوتها فى التنقل فى المناكح بمنزلة الواحدة، وإن الواحدة من وقوع الكفاية ووجود الاستغناء تنوب على الأربع.

كذلك خير الله عز وجل صورة النفس فيما عليه جبلتها، وفاوت بين الطبائع فيما عليه جعلها، يقال إن الله عز وجل أباح الجمع بين الأربع، لأجل الطبائع الأربع لكل طبيعة واحدة على قدر حركاتها وتوقان النفس عندها، ولا نقص على العبد فى ذلك إذا قام بما عليه لهن، أو سمحن بحقوقهن من النفقة والمبيت له، بل ذلك مزيد له ودلالة على قوته وتمكنه فى الحال. وهذه طرائق الأقوياء والأئمة من الرجال. وقد شرط الله تعالى مع الزوجة الواحدة ثلاثة شروط، إن وجدت كان بها كفاية العبد وسكنت بها نفسه، وكان ذلك من آيات الله

الدالة عليه، وإن لم توجد الشروط الثلاثة مع الواحدة كان له المزيد عليها إلى الرباع، وكُنَّ فى المعنى كالواحدة لعدم الشروط التى أخبر الله عز وجل بسكون النفس عندها، وعند الأربع توجد الشروط فى قلوب المؤمنين لا محالة كما أخبر عز وجل، وكان ذلك أيضاً من آياته وحكمته الدالة عليه، فقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الروم ٢١، فإن وجد العبد سكون النفس، ورحمة القلب، والمودة فى المرأة الواحدة فهو من آيات الله عز وجل، وهى كفايته وغنيته، وإن لم يجد السكون ولا الرحمة ولا المودة إلا فى الأربع فهن حينئذ كفايته وغنيته، والله تبارك وتعالى يغنى بالواحدة ويغنى بالأربع.

العدل بين الأزواج

وليتوخ العدل بين أزواجه من جمع بينهن فى النفقة والكسوة والمبيت، ولا يحيف على بعض فيقصر عن كفايتها وواجبها فى ذلك، فقد جاء فى الحديث: (مَنْ كَانَ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا دونَ الأُخْرَى وفى لفظ آخر: فَلَمْ يَعْدِلْ بَيْنَهُمَا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَحَدُ شِقَّيْهِ مَائِلٌ) ولا عدل عليه فى المحبة أو الجماع لأن ذلك لا يملك إذا سوى فى البيتوتة، ولا عليه أنى يجامع من بات عندها، إنما عليه المبيت ليلة وليلة، وفى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ النساء ١٢٩، قال: لن تقدروا على العدل بينهن فى الحب والجماع، لأن ذلك فعل الله عز وجل فى القلوب وفى شهوة النفس.

وروينا عن رسول الله ﷺ أنه كان يقسم بين نسائه فى العطاء والمبيت، وكان يقول: (اللَّهُمَّ هَذَا جُهدِى فيما أَمْلِكُ، ولا طاقةَ لى فيما تملك ولا أَملِكُ) يعنى فى المحبة والجماع، فكان يحب بعضهن أكثر من بعض، وكانت عائشة رضى الله عنها أحبهن. وكان يطاف به ﷺ محمولاً فى مرضه فى كل يوم وليلة فيقول: (أَيْنَ أَنَا غَداً) ففطنت امرأة منهن فقالت: إنما يسأل عن يوم عائشة رضى الله عنها، فقلن: يا رسول الله، إنه ليشق عليك أن تحمل، فقد أذِنَّا لك أن تكون فى بيت عائشة رضى الله عنها، فقال: (قد رضيتن بذلك؟ قلن نعم، قال: فحولونى إلى بيت عائشة) فلذلك كانت تقول: (قُبِضَ فى بيتى وبين سحرى ونحرى) تفتخر بذلك.

ثم قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ النساء ١٢٩، يعنى على واحدة دون الأخرى فى التقصير والنفقة ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ النساء ١٢٩، أى موقوفة كأنها لا ذات زوج ولا مطلقة، أى لا أيم فتتحمل لنفسها، ولا ذات زوج ينفق عليها فتستغنى بزوجها. فعليه أن يقسم بينهن أيامه ولياليه، فيكون عند كل واحدة يوماً وليلة إلا أن تَهَبَ لصاحبتها ليلتها، أو تسمح له بذلك، فكذلك كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه، فأراد أن يطلق سودة بنت زمعة لما كبرت فوهبت ليلتها لعائشة، وسألته أن يقرها على الزوجية لتحشر فى نسائه فتركها ولم يكن يقسم لها فكان يقسم لعائشة ليلتين ولسائر أزواجه ﷺ ليلة ليلة، إلا أنه عليه الصلاة والسلام لشدة عدله، كانت نفسه إذا تاقت إلى واحدة ليلاً فى غير ليلتها أو نهاراً فى غير يومها أتاها فجامعها ،ثم طاف فى ليلته على سائرهن، وكذلك كان يفعل فى يومه، فمن ذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها وغيرها أن رسول الله ﷺ طاف على نسائه فى ليلة واحدة.

ومن لم يكن له إلا واحدة استحب له أن يفضى إليها بعد كل ثلاث ليال بمنزلة من له أربع نسوة، فيباشرها فى الليلة الرابعة، فإن علم أن حاجتها إلى أكثر من ذلك كان عليه أن يفعل ما هو أقرب لتحصنها وأثبت لعفافها، وإن علم منها كراهة ذلك وقلة همتها له لم يكن عليه الإفضاء إليها إلا فى كل شهر مرة، أو فى كل سنة مرة، وعليها ألا تمنعه ليلاً ولا نهاراً فى كل وقت، وإن كانت صائمة فلا يحل لها أن تصوم إلا بإذنه.

وتزوج علىٌّ عليه السلام بعشر نسوة، وتوفى عن أربع وسبع عشرة سرية، وتزوج الحسن بن علىٍّ عليهما السلام مائتين وخمسين امرأة، وقيل: ثلاثمائة، وتزوج المغيرة بن شعبة بثمانين امرأة، وقد كان فى الصحابة رضى الله عنهم من له الثلاث والأربع، وكثير منهم لا يحصى كانت له اثنتان لا يخلو منهما.

ويقال: إن كثرة النكاح من شدة غض البصر وقطع المشى فى الأثر، إذا خشع الطرف وقصر عن الحرام وانقطع المشى على الأرض غاض البصر فى النفس فاتسع فى الحلال، وذلك لأن للنفس استراحات إلى مجانسها هو فتورها عن الذكر، فاستراحات نفوس المتقين إلى المباح، من ذلك قوله عز وجل: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ الأعراف ١٨٩، وهذا سكون النفس إلى الجنس

لما تلائمه من الصفات المجانسة، وهو أحد المعانى فى قول علىٍّ عليه السلام: (رَوِّحُوا ٱلْقُلُوبَ) يعنى فى الذكر، قيل: روحوها باستراحة النفس إلى المباح، يعنى ذكر الآخرة لأن الذكر أثقال، وهو بمعنى قول النبى ﷺ: (إِنَّ لِكُلِّ عَالِمٍ شَرَهاً وَفَتْرَةً فمن كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدِ ٱهْتَدىَ) والشّرَه: المكابدة، والفترة: الوقوف والاستراحة.

وقد كان النساء قدياً على غير وصفهن الآن، كان الرجل إذا خرج من منزله تقول له امرأته: يا هذا، وتقول له ابنته: يا أبانا لا تكسب اليوم شيئاً من غير حله فيدخلك النار، فنكون نحن سببه، فإنا نصبر على الجوع والضر ولا نكون عقوبة لك. وأراد رجل من السلف أن يغيب عن أهله فى غزوة، فكَرِه إخوانه ذلك لأُنسهم به، فجاءوا إلى أهله فقالوا: لم تتركين زوجك يسافر ولا يدع لك نفقة ويغيب عنك ولا تدرين متى يقدم؟ فقالت: زوجى منذ عرفته أكال، وما عرفته قط رزاقاً، يذهب الأكال ويبقى الرزاق، ومع ذلك فلا أحب أن أكون مشئومة عليه أقطعه عن سبيل الخير.

ما يستحب للرجل إذا أراد التزويج

واستحب للرجل إذا أراد التزويج أن يشرح حاله ويبين أخلاقه للمرأة حتى تكون على بصيرة من أمره، ويقين من حاله، ويدخل على اختيار منها فذلك من الورع، وقد فعله بعض السلف، وقد تزوج رجل على عهد عمر رضي الله عنه وكان يخضب بالسواد، فلما دخل بامرأته نصل خضابه فظهرت شيبته، فاستعدى أهل المرأة وقالوا: نحن حسبناه شاباً، فأوجعه ضرباً وقال: غررت بالقوم، وفرق بينهما. وروى عن شعيب ابن حرب لما أراد أن يتزوج قال للمرأة: إنى سئ الخلق، فقالت يا هذا، أسوأ خلقاً منك من يحوجك إلى سوء الخلق.

ومن خشى على نفسه الآفات ووفق له امرأة فيها بعض الخصال المحمودة فالتزوج له أفضل، فليكن له حينئذ فى التزوج نيات، لأنه من أكبر الأعمال، ولا يكون نكاحه لأجل هواه مجرداً، ولتكن نيته إقامة سُنة، وصلاح قلبه، وسلامة دينه، وغض بصره، وتحصين فرجه فقد أمر بذلك، ويحتسب فى الكسب على العيال المثوبة من الله عز وجل، ويحتسب فى مثل ذلك فى نصحه لها فى أمر الآخرة كما يحبه لنفسه حتى يؤجر بسببها مثل ما يثاب لنفسه فهو

من النصيحة لها والإشفاق عليها، وليجعل ذلك لوجه الله سبحانه وتعالى، فقد روى عنه ﷺ: (مَا أَنفَقَ الرَّجُلُ علىَ أهلِهِ فهو لهُ صَدَقَةٌ، وَإِنَّ الرجلَ لَيُؤْجَرُ فِي رفعِ اللُّقْمَةِ إلى فَمِ امْرأتِهِ) ومنها أنه كالمجاهد فى سبيل الله، وروى عنه ﷺ: (مَنْ حسُنتْ صلاته، وكَثُرَتْ عِيَالُهُ، وقلَّ مالُهُ، ولَمْ يغتب المسلمينَ، فهو مَعِي فى الجنةِ كهاتين) وفى حديث آخر: (إِنَّ اللهَ تعالَى يُحِبُّ الفقير المتعففَ أباَ العِيَالِ) ومن النية فى ذلك أن الاهتمام بمصلحتهم والغم على نوائبهم زيادة فى حسناته، لأنه عمل من أعماله. وفى الخبر (إذا كثُرَتْ ذنوبُ العبد ابتلاهُ اللهُ تعالى بالهمِّ لِيُكَفرَهَا) وقد روينا (إنَّ من الذنوبِ ذنوباً لا يكفِّرُها إلا الهمُّ بطلبِ المعاشِ).

وله فى الصبر عليهن وجميل الاحتمال لأذاهن وفى حسن العشرة لهن مثوبات وأعمال صالحات، وربما كان موت العيال عقوبة للعبد ونقصان حظ، إذا كان الصبر عليهم والإنفاق مقاماً له، فكان عدم ذلك مفارقة لحاله وفى ذلك نقصان.

وإنما كره الأهل والولد لأجل الشغل بهم عن الله تعالى، وما يقرب إليه سبحانه، فإذا كان من لا أهل له ولا ولد مشغولاً ببطالته عن الله عز وجل، منهمكاً فى شهواته عن سبيل هؤلاء، كان أسوأ حالاً من ذى الأهل والولد. وقد روى فى الخبر: (إن من أهل النَّارِ الضعيف الذى لا دِينَ لَهُ، هو فيكم تَبَعٌ لا يَبْغِي أهلاً ولا مالاً) قيل: هم السؤَّال المنهمكون فى المسألة، الذى همه بطنه لا يبالى كيف طلب، ولا على أى حال من الفحش تقلب، فمن لم يشغله أهله وماله عن الله عز وجل، كان أفضل ممن لا أهل له ولا ولد فهو عبد بطنه وفرجه، أسير هواه وشهوته.

وقد أخبر الله تعالى أن للمؤمنين أموالاً وأولاداً، ثم أمرهم ألا يشغلهم ذلك عن الله عز وجل، وقد وصف أقواماً أن بيعهم وتجارتهم لا تشغلهم عن عبادته، وأنهم أهل خوف من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار.

فإن عزم العبد النكاح فلا يكون همه من النساء إلا ذات دين وصلاح وعقل وقناعة، فلا تخلص له النيات التى ذكرناها آنفاً إلا على هذه القواعد، قال رسول الله ﷺ: (تُنكَحُ المرأةُ لمالِهَا وجمالِهَا وحَسَبِهَا ودينِهَا، فعليك بذاتِ الدينِ)، وفى حديث آخر: (من نكَحَ المرأةَ لمالِهَا

وجمالِها حُرِم مالَهَا وجمالَهَا، ومن نكحهَا لدينها رزقهُ اللهُ عزَّ وجلَّ مالَهاَ وجمالَهَا) وروينا أيضا: (لا تَنْكِحُوا المرأةَ لجمالهاَ فلعلَّ جمالَهَا يُرْدِيهَا، ولا لمالِهَا فلعلَّ مالَهاَ يُطْغِيهَا، وَانْكِحُوا المرأةَ لِدِينِهَا)، فنكاح المرأة للدين والصلاح طريق من الآخرة، والرغبة فى المرأة الناقصة الخلق، الدنيئة الصورة، الكبيرة السن من باب الزهد. وكان مالك بن دينار يقول: يترك أحدهم أن يتزوج يتيمة فيؤجر فيها، إن أطعمها أو كساها تكون خفيفة المؤونة، ترضى باليسير، ويتزوج بنت فلان وفلان يعنى أبناء الدنيا فتشتهى الشهوات عليه وتقول: اكسنى ثوب كذا، واشتر لى مرط حرير، فيتورط فى دينه.

واستحب له أن ينظر إلى وجهها قبل التزويج بها وإلى ما يدعوه إليها، فإن ضم إلى الوجه الكفين فلا بأس بذلك، ففى النظر إلى الوجه أحاديث مأثورة منها قوله ﷺ: (إذَا أوقَعَ اللهُ عزَّ وجلَّ فى قلبِ أحدِكم خطبةَ امرأةٍ فلينظر إليهَا ليرى منها ما يَدْعُوهُ إليهَا) وفى الحديث الآخر: (إنَّ فى أعينِ الأنصار شيئاً فإذَا أرادَ أحدُكُمْ أَن يتزوجَ مِنْهُنَّ فلينظر إليهنَّ ولا يُغالى فى المهْرِ)، فقد تزوج رسول الله ﷺ بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث البيت وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينهى عن المغالاة لمهور النساء ويقول: ما تزوج رسول الله ﷺ امرأة من نسائه ولا زَوَج على أكثر من أربعمائة درهم، وعن عائشة رضى الله عنها: كانت مهور أزواج رسول الله ﷺ اثنتى عشرة أوقية ونصفاً، وقد كان يزوج أصحابه عليه الصلاة والسلام على وزن نواة من ذهب، والنواة صغيرة وهى نواة التمر الصيحانى، يقال: قيمتها خمسة دراهم، ففى الخبر عنه ﷺ: (أَبْرَكُهُنَّ أَقَلُّهُنَّ مَهْراً)، وأيضاً عنه ﷺ: (مِنْ بركةِ المرأةِ سُرْعةُ تزويجها وسرعةُ رَحِمِهاَ – يعنى الولادة – وَيُسرُ مَهْرِهَا)، قال عروة: وأقول إن من شؤمها كثرة صداقها.

أسس المعاملة والسلوك بين الزوجين

ولا يصلح للمتزوج أن يسأل: أى شئ للمرأة؟ ولا يحل له أن يدفع شيئاً ليأخذ أكثر منه، ولا يحل لهم أن يهدوا إليه شيئاً ليضطروه أن يكافئ بأكثر منه، وليس عليه أن يزيد بأكثر من قيمته إن كافأ، وله ألا يقبل هديتهم إن علم ذلك منهم، وهذا كله بدعة فى النكاح، وهى

كالتجارة فى التزويج، وهو داخل فى الربا، وهو يشبه القمار، ومن زوج أو تزوج على هذا بهذه النية فهى نية فاسدة، وليس نكاحه هذا للدين ولا للآخرة، وكان الثورى يقول: إذا تزوج الرجل وقال: أى شئ للمرأة؟ فاعلم أنه لص فلا تزوجوه.

ولا ينكح إلى مبتدع ولا فاسق ولا ظالم ولا شارب خمر ولا آكل الربا، فمن فعل ذلك فقد ثلم دينه وقطع رحمه، ولم يحسن الولاية لكريمته لأنه ترك الإحسان، وليس هؤلاء أكفاء للحرة المسلمة العفيفة، قال بعض السلف: (النكاحُ رِقّ، فلينظُرْ أحدُكم عند مَنْ يَرِق كَرِيمَتَهْ). وقال بعضهم: لا تنكح إلا الأتقياء فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها أنصفها، وقال ﷺ: (تَخَيَّرُوا لنُطفِكم وانكحُوا الأكفاءَ وأنْكحُوا إلَيْهِمْ) ولا نكاح إلا بولىٍّ وشاهدى عدل وإن كانت ثيباً، فإن لم يكن ولىٌّ فالسلطان ولىٌّ من لا ولىَّ له، أو من ولاه الحكم، كذلك كانت السُنة.

تحصيل ما يلزم للزوجين من العلم

وليتعلم المتزوج علم الحيض واختلاف أوقاته وزيادته ونقصانه، وأحكام الاستحاضة من ذلك، وعلم وقت الإطهار ليعلمها ذلك، وليغنيها بذلك عن السؤال والظهور إلى الرجال، ثم ليعلم أهله علم ما لا يسعهم جهله من الفرائض وأحكام الصلاة وشرائع الإسلام واعتقادات المؤمنين من السُنة وما عليه من مذهب الجماعة، فإذا فعل ذلك لم يكن عليها أن تخرج إلى العلماء، وإن قصر عن علمها علم التوحيد ومبانى الإسلام وعقود الإيمان ومذهب أهل السُنة، فلها أن تخرج إلى السؤال عما لا يسعها جهله، وليس لها أن تخرج بغير إذنه لطلب علم يرجى فضله.

تحرى الكسب الحلال

وليس للمرأة أن تحمل زوجها على المكاسب الحرام، ولا تكلفه ما يقترف به الآثام، ولا للرجل أن يدخل فى مداخل السوء، ولا يبيع آخرته بدنياه، فإن صبرت معه على البر والتقوى أمسكها، وإن حملته على الإثم والعدوان فارقها، ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾

النساء ١٣٠، ويقال: أول من يتعلق بالرجل يوم القيامة زوجته وولده، فيوقفونه بين يدى الله عز وجل، فيقولون: يا ربنا خذ لنا حقنا من هذا، فإنه ما علمنا ما نجهل، وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم، قال: فيقتص لهم منه. وفى خبر: (إنَّ العبدَ ليُوقَفَ للميزانِ وله من الحسناتِ أمثالُ الجبال، فيُسألُ عن رعاية عيالِهِ والقيامِ بهم، وعن مالِهِ من أين اكتسبَهُ وفيم أنفقهُ، حتى تَسْتَفْرِغَ تلك المطالباتُ جميعَ أعمالِهِ، فلا يبقى له حسنة، فتنادى الملائكة: هذا الذى أَكَلَ عِيَالُهُ حَسَنَاتِهِ فِى الدنيا، وارْتهنَ اليومَ بأعمالِهِ). قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ التحريم ٦، فأضاف سبحانه الأهل إلى النفس، وأمرنا أن نقيهم النار بتعليم الأمر والنهى، كما نَقِىِّ أنفسنا النار باجتناب النهى، وجاء فى تفسير ذلك: علموهن وأدبوهن. وقال ﷺ: (كُلُّكُمْ راعٍ وكلُّكم مسئولٌ عن رعيَّتِهِ، فالمرأةُ راعيةٌ على مَالِ زوجِها وهى مسئولةٌ عنه، والرجل راعٍ على أهلِهِ وهو مسئولٌ عنهم)

ويقال: إذا أنفقت المرأة من مال زوجها بغير إذنه لم تزل فى سخط الله عز وجل حتى يأذن لها، والخبر المشهور: (كفى بالمرءِ إثماً أن يُضَيِّعَ مَن يعولُ) ولا يحل للزوجة أن تطعم من منزل زوجها إلا الرطب الذى يخاف فساده، فإن أطعمت وأنفقت عن إذنه ورضاه كان لها مثل أجره، وإن أطعمت بغير إذنه كان له الأجر وعليها الوزر.

طاعة الزوجة لزوجها

وينبغى أن يعرفها أعظم حقه عليها فى مقام الوالدة بقوله للمرأة: عليك بطاعة زوجك، فإنه جنتك ونارك. قال ﷺ: (أيُّما امرأةٍ ماتتْ وزوجُها عنها راضٍ دخلت الجنةَ) وقال ﷺ: (إذاَ صلَّت المرأةُ خمسَها، وصامتْ شهرَهاَ، وحفِظَتْ فَرْجَهَا، وأطاعَتْ زوجَها، دَخَلَتْ جَنَّةَ رَبِهَا) فأضاف طاعة الزوج إلى أبنية الإسلام التى لا يدخل الجنة إلا بها، واشترط طاعته لدخولها. وذكر رسول الله ﷺ النساء فقال: (حاملاتٌ والداتٌ مرضعاتٌ رحيماتٌ بأولادهنَّ، لولا ما يأتين إلى أزواجهنَّ دخلتْ مُصَلِيَاتُهُنَّ الجنة) وفى الخبر الجامع لفضائل الزوج أن النبى ﷺ قال: (لَوْ أَمَرْتُ أَن يُسجدَ لشئٍ سوى الله عزَّ وَجَلَّ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لِزَوْجِهَا)، من عِظَمِ حَقهِ عَلَيْهَا.

ومن حقه ألا تعطى شيئاً من بيته إلا بإذن زوجها، فإن فعلت ذلك كان الإثم عليها والأجر له. ومن حقه ألا تصوم تطوعاً إلا بإذنه، فإن فعلت جاعت وعطشت ولن يقبل منها. ومن حقه ألا تخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن فعلت لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيتها أو تتوب. وينبغى أن تعرض نفسها عليه فى كل ليلة، وفى حديث: (إنَّ المرأةَ عَوْرَةٌ فإذا خرجت استشرفَهَا الشيطانُ) فإن أمرها بما يصلحها مما أبيح لها فخالفته وعظها وزجرها، فإن عادت لخلافه هجرها فى المضجع، فبعض العلماء يقول: يوليها ظهره. وبعضهم يقول: يعتزل فراشها من ليلة إلى ثلاث إلى سبع ليال، فإن لم ينجح فيها ذلك ولم تبال به ضربها، والعلماء يقولون: ضرباً غير مبرح، وتفسيره أنه لا يكسر لها عظماً ولا يدمى لها جسماً. وله أن يغضب عليها فى الأمر من أمور الدين من عشرة أيام إلى شهر، فقد غضب رسول الله ﷺ فى كلام كلمه بعض أزواجه، فأرسل بهدية إلى بيت زينب فردتها عليه، فقالت له التى هو فى بيتها: لقد أقمتك إذ ردت عليك هديتك، فقال ﷺ: (أَنتُنَّ أهونُ علىَ اللهِ أن تُقْمِئْنَنى) ثم غضب عليهن كلهن شهراً. ومعنى أقمتك: استصغرتك وأذللتك.

ولا ينبغى أن يقتر على أهله بالإنفاق، فقد روى عنه ﷺ: (خيرُكم خيرُكم لأهلِهِ وأنا خيرُكم لِأَهْلِى).

رفق الزوج بزوجته

إن كان من أهله زلة أو هفوة احتمل ذلك، ورفق بها ولم يعسفها، ففى الحديث: (خُلقت المرأةُ منْ ضلعٍ أعوج إن قومته كسرتَهُ، وإن تركتَهاَ استمتعتَ بها على عِوَجٍ) وفى لفظ حسن: (وكسرُها طَلَاقُها).

وقد كان أزواج النبى ﷺ يراجعنه القول، وتهجره إحداهن يوماً إلى الليل، ودفعت إحداهن فى صدره فزجرتها أمها، فقال: (دَعيهاَ فإنَّهُنَّ يصنعنَ أكثرَ من هذا) وجرى بينه عليه الصلاة والسلام وبين عائشة رضى الله عنها كلام، حتى أدخل أبا بكر رضي الله عنه بينهما حكماً واستشهده، فقال لها رسول الله ﷺ: (تكلمينَ أو أتكلم؟ قالت: بل تكلم أنتَ ولكن لا تقل إلا حقاً) فلطمها أبو بكر رضي الله عنه حتى دمى فوها وقال: (أى عدوَّةَ نفسهاَ، أَوَ يَقولُ غيرَ الحق؟

بل أنت وأبوك تقولان الباطل ولا يقولُ رسولُ الله ﷺ إلا حقاً) نصرة لرسول الله ﷺ وغضباً له، حتى استجارت بالنبى ﷺ وقعدت خلف ظهره، فقال له النبى ﷺ: (لَمْ نَدْعُكَ لهذَا، وَلَمْ نُرِدْ هَذَا مِنك).

وقالت له مرة فى كلام: أنت الذى تزعم أنك نبى، فتبسم رسول الله ﷺ حلماً وكرماً، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لعائشة رضى الله عنها: (إنى لأعرفُ غضَبَكِ من رِضَاكِ، قالت: وكيف تعرفُ ذلك؟ قال: إن رضيتِ قُلْتُ لا وإله محمد، وإذا غضبتِ قُلْتِ لا وإله إبراهيمَ، قالت: صدقتَ، إنما أهجرُ اسْمَكَ).

وقد كان ﷺ يمزح مع أزواجه، ويقاربهن فى عقولهن فى المعاملة والأخلاق، وفى الخبر: (كان رسول الله ﷺ من أفكه الناس مع نسائه). وقال لقمان الحكيم: العاقل فى بيته ومع أهله كالصبى، فإذا كان فى القوم وجد رجلاً، وفى تفسير الخبر المروى: (إنَّ اللهَ يَبْغَضُ الجَعْظَرِيَّ الجَوَّاظَ) قيل: هو الشديد على أهله، المتكبر فى نفسه.

الغيرة

روينا فى الخبر: (غَيْرَةٌ يبغَضُهاَ اللهُ عزَّ وجلَّ، غَيْرَةُ الرجلِ على أهلِهِ فى غيرِ دِينِهِ)، كأنه يكون من سوء الظن الذى نهى الله ورسوله عنه، وروينا عن علىّ عليه السلام: (لا تكثر الغيرةَ على أهلِكَ فتُرمَى بالسوءِ من أجلِكَ) ولعمرى، إن الغيرة لها حد فإذا جاوزها الرجل قصر عن الواجب وزاد على الحق. وقد كان الحسن يقول: (أَتَدَعُونَ نساءَكم يُزاحِمْنَ العلوجَ فى الأسواق؟ قبَّح اللهُ من لا يغارُ). وقد قال ابن عمر رضى الله عنهما، عن رسول الله ﷺ: (لا تمنعُنَّ إماءَ اللهِ مساجِدَ اللهِ) فقال بعض ولده: بلى والله نمنعهن، فضربه وغضب عليه وقال: تسمعنى أقول: قال رسول الله ﷺ لا تمنعوهن وتقول بلى نمنعهن! وقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ الطلاق ٣، وقال بعض الحكماء من جاوز الشئ فمذموم كمن قصر عنه.

فلا بأس بالحرة العفيفة أن تخرج لشئ لابد لها منه من قضاء حوائجها، قال ﷺ: (أُذِنَ لَكُنَّ أَن تَخرُجْنَ فِي حَوائِجِكُنَّ) وكذلك تخرجن فى الأعياد خاصة، أطلق ذلك لهن رسول الله ﷺ، ولكن لا يخرجن إلا بإذن أزواجهن وعن رضاهم، ولا يخرجن أيضاً إلا فيما يعنى مما

لابد منه، وألا يراهن رجل فهو أفضل لهن وأصلح لقلوبهن، وروينا أن رسول الله ﷺ قال لابنته فاطمة عليها السلام: (يا ابنتي أيُّ شَيءٍ خيرٌ للمرأةِ؟ فقالت: ألاَّ تَرى رجُلاً ولا يراها رجلٌ، فضمها إليه وقال: ذرية بعضُها من بعضٍ) وكان أصحاب رسول الله ﷺ يسدون الثقب والكواء فى الحيطان لئلا يطلع النسوان.

احتمال الهفوات والصبر على الأذى

وهو مأجور على احتماله هفوات أهله وصبره على أذاهن، ومثاب على حسن عشرتهن. وقال محمد بن الحنفية رضي الله عنه: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بُدّاً حتى يجعل الله له منه فرجاً ومخرجاً. فإن كانت بذيئة اللسان قليلة القبول عظيمة الجهل كثيرة الأذى فطلاقها أسلم لدينها، وأروح لقلوبها فى عاجل دنياه وآجل آخرته، وقد شكا رجل إلى رسول الله ﷺ بذاءة امرأته فقال له: (طَلِّقْهاَ، فقال: إنى أحبها، قال: أَمْسِكْهاَ إِذَنْ) فخشى عليه تشتت همه بفراقها مع المحبة، وتشتت الهم أعظم من أذى الجسم. وفى معنى قوله عز وجل: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ الطلاق ١، قال ابن مسعود: إذا بدت على أهلها وآذت زوجها فهو فاحشة، وهذا يعنى به العدة لأن الله تعالى يقول: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ الطلاق ٦، فهو متصل بقوله: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ الطلاق ١، أى فى العدة.

الطلاق مباح إلا أنه مكروه بغير سبب

من الناس من يظن أن الطلاق محظور يتأول هذه الآية على غير تأويلها، فالطلاق مباح إلا إنه مكروه بغير سبب لتفرقة الألفة، وقد روى فى خبر: (ما أحلَّ اللهُ شيئاً أبغَضَ إليهِ مِنَ الطلاقِ). ولا بأس أن تفتدى المرأة من زوجها إذا خافت ألا يقيم حدود الله فيها، ولا تقوم بواجب حقوقه عليها، وأكره أن يأخذ الفدية أكثر مما أعطاها، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ البقرة ٢٢٩، وهذا هو الخلع الجائز عند أكثر العلماء. ولا يحل لامرأة أن تسأل زوجها طلاقها ولا أن تخلع منه بغير رضاه، قال رسول الله ﷺ: (أَيُّمَا امْرَأَةٍ سألتْ زوجَها طلاقَهاَ من غير بَأْسٍ لم تَرُحْ رائحةَ الجنَّةِ)، وقال: (المختَلِعَاتُ هنَّ المنافقاتُ).

النشوز

النشوز قد يكون من الزوجين معاً، إلا أنه أبيح للزوج ضربها فى النشوز، وأبيح لها الصلح فى نشوز الزوج، قال الله عز وجل: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ﴾ النساء ١٢٨، وأصل النشوز أن يعلوا أحدهما على صاحبه ويرتفع عنه، كأن يجفو عليه ويجتنبه فيكون فى نحو غير نحوه، فيكون من هذا الكلام الفاحش، ويكون منه الأذى، ويكون منه الهجر والانفراد. ويحكم الحكمان فى هذا أحدهما من أهله والآخر من أهلها، يعدلون وينظرون فيما بينهما. وقد وعد الله عز وجل الغنى مع الفرقة، كما وعده سبحانه مع النكاح فقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ النساء ١٣٠، كما قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ النور ٣٢، فقد يكون الغنى بالمال، ويكون بأن يستغنى كل واحد منهما عن صاحبه بما خصه الله من خفى لطفه، وجاء فى خبر: (ثلاثٌ لا يُستجابُ دُعاؤُهم: رجلٌ له امرأة سوء يقول: أراحنى الله منكِ، وقد جعل سبحانه الطلاقَ بيده إن شاء طَلَّقَ، والآخر فى المملوك السوء وجار السوء).

حسن العشرة

ليحسن الرجل عشرة أهله والقيام بهن، فقد قال تعالى: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًا﴾ النساء ٣٤، أى لا تطلبوا طريقاً إلى الفرقة ولا إلى خصومة أو مكروه، وهذه حينئذ على صورة الأنفس المطمئنة إذا استجابت للإيمان وطوعت لك إلى أخلاق المؤمنين، فتولها من الإرفاق وأرفق بها فى مثالها من المباح. وقد شبه الله عز وجل حسن القيام على الزوجة بحسن القيام على الوالدين فقال فيهما: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِى ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ لقمان ١٥، وقال سبحانه فى أمر النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ النساء ١٩، ثم أجمل سبحانه فى النساء ما فرقه من حق الزوج فى كلمة واحدة فقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِى عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ البقرة ٢٢٨، وقال فى عظيم حقهن: ﴿وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظٗا﴾ النساء ٢١، وقال عز وجل: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ النساء ٣٦، قيل: هى المرأة.

وآخر ما أوصى به رسول الله ﷺ ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخَفِىَّ كلامه،

جعل يقول: (الصلاةَ الصلاةَ وما ملكَتْ أَيمانُكم لا تكلفوهم مالا يطيقون، واللهَ اللهَ فى النساء فإنهُنَّ عوان فى أيديكم - يعنى أسرى - أخذتُموهُنَّ بعهدِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُم فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ)، وسئل ﷺ: ما حق المرأة على الرجل؟ قال: (يُطعِمُها إذا طَعِمَ، ويَكْسُوها إذا اكْتَسَى، ولا يُقَبح الوجهَ ولا يهجرُ إلا فى البيتِ)، وينبغى أيضا إذا أراد النكاح أن يتعلم ما تحتاج إليه المرأة من حسن العشرة والقيام بما لها عليه، وجميل المداراة ولطف المفاوضة، ويعلمها حسن قيامها بما يجب له عليها، ويعرفها ما أوجب الله عليها من ذلك.

الزوج سيد زوجته

لا تُملك المرأة شيئاً من أمرك، فإن الله عز وجل قد مَلكَك إياها، فلا تقلب بهواك حكمة الله فينقلب الأمر عليك، فكأنك قد أطعت العدو ووافقته فى قوله: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ النساء ١١٩، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ النساء ٥، يعنى النساء والصبيان، ومنه قوله ﷺ: (تَعِسَ عَبْدُ الزَّوْجَةِ)، لأنه إذا أطاعها فيما تهوى دخل تحت التعس، فكأنه قد بدل نعمة الله كفراً، لأن الله عز وجل جعله سيدها فى قوله تعالى: ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ يوسف ٢٥، يعنى زوجها، ولا تعودها عادة فتجترئ عليك وتطلب المعتاد منك، فهى على مثال أخلاق النفس سواء، إن أرسلت عنانها جمحت بك، وإن أرخيت عنانها فِتْراً جذبتك ذرعاً، وإن شددت يدك عليها وكبحتها ملكتها، فلعلها أن تطوع لك.

من وصايا بعض العرب لبناتهم

كان نساء العرب يعلمن أولادهن اختبار أزواجهن، كانت المرأة إن أنكحت ابنتها قالت: يا بنتى اختبرى زوجك وقبل أن تقدمى عليه انزعى زج رمحه، فإن سكت لذلك قطعى اللحم على ترسه، فإن أقر فاكسرى العظام بسيفه، فإن صبر فاجعلى الإكاف على ظهره وامتطيه فإنما هو حمار.

وأوصى أحد حكماء العرب ابنته ليلة زفافها فقال: يا بنية، قد كانت والدتك أحق بتأديبك

منى لو كانت باقية، وأما الآن فإنى أحق بتأديبك من غيرى، افهمى عنى ما أقول: إنك قد خرجت من العش الذى فيه درجت، وصرت إلى فراش لا تعرفيه وقرين لم تألفيه، كونى له أرضاً يكن لك سماء، وكونى له مهاداً يكن لك عماداً، كونى له أمة يكن لك عبداً، لا تلحفى به فيقلاك، ولا تتباعدى عنه فينساك، إذا دنى فاقربى منه، وإن نأى فابتعدى عنه، واحفظى أنفه وسمعه وعينه لا يشم منك إلا طيباً، ولا يسمع إلا حسناً، ولا ينظر إلا جميلاً، واكرهى العزل كراهية شديدة، فإنه دقيقة من الشرك الخفى، وفيه نهى رسول الله ﷺ.

حكم العزل

كرهه جماعة من السلف الصالح، ولم يكن خيار المتقين يعزلون، وأقل ما فيه الخروج من التوكل على الله عز وجل، وقلة الرضا بحكم الله تعالى، وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول: العزل هو الموءودة الصغرى. فلقوله هذا استنباط حسن من السُنة، وذلك أنه روى عن النبى ﷺ فى فضائل الجماع: (إنَّ الرجل ليجامعُ أهلَه فيكتب له من جماعه أجرُ ولد ذكر قاتل فى سبيل الله عز وجل، فقيل له: وكيف ذلك يا رسول الله؟ فقال: أنت خلقته؟ أنت رزقته؟ أنت هديته إليك محياه؟ إليك مماته؟ قالوا: بل الله خلقه ورزقه وهداه وأحياه وأماته، قال: فأنت تراه فى هذا المعنى) يقول: إذا جامعت فأمنيت فى الفرج وقد قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ الواقعة ٥٨-٥٩، فإذا لم يخلق الله من منيك خلقاً، حسب لك أنه قد خلق له ذكراً على أتم أحواله وأكمل أوصافه، بأن يقاتل فى سبيل الله فيقتل، لأنك قد جئت بالسبب الذى عليك وليس عليك خلقه ولا رزقه ولا هدايته، وإنما يقدر على ذلك الله عز وجل، وهو فعله مجرداً، فكان لك أجر ما لو فعله الله تعالى، إذ قد أتيت بما أمكنك عمله، فلذلك قال ابن عباس: (هو الموءودةُ الصُّغرى) لأنه يوجد بالعزل عدم هذا الفضل إذ كان العبد سبب عدمه، لأنه لم يفعل ما يتأتى منه الولد، فذهب فضله وحسب عليه قتله.

العزل دقيقة من الشرك الخفى

إنما قلنا: إن العزل دقيقة من الشرك الخفى، لأن أهل الجاهلية كان سبب قتلهم بناتهم

معانى، أحدها خشية العار بهن، ومنها كراهة الإنفاق عليهن، ومنها الشح وخوف الفقر والإملاق، وكانت العرب تقول: من كان له أحد الحوبات الثلاث لم يشرف عشيرته، ولم يسد قومه، يعنون بالحوب: الأم والأخت والبنت، والحوبات: جمع حوبة، وهى كبيرة، قال الله تعالى فى أكل أموال اليتامى: ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ النساء ٢، وعندى: ليس هذا الذى قلتم عندكم. وكان من خيار التابعين المؤمنين من يستحب له الجمع بين هؤلاء الثلاث: الأم والأخت والبنت، لما فيهن من عظيم المثوبة والفضل، ليخالف بذلك سُنة الجاهلية، فقد توجد هذه المعانى أو بعضها فى العزل، فلذلك سميناه شركاً خفياً وكرهناه.

وهو مذهب الخوارج من النساء كان فيهن تقذر وتعمق من استعمال كثرة الماء للطهارة، ودخول الحمامات ومجاوزة الحد فى الطهور، وكن أيضا يقضين الصلاة أيام الحيض، ويَصُمْنَ فى حيضهن، ولا يصلين فى ثياب الحيض حتى يغسلها، ولا يدخلن الخلاء إلا عراة. وكانوا يكرهون الولادة طلباً للنظافة وكراهة للتقذر، خلافاً لسُنة نساء العرب، ابتدعوا هذه البدع ففارقوا بها سُنة رسول الله ﷺ وسنن نسائه، من أنباط العراق وأهل النهر، وكان بعضهن استأذن على عائشة رضى الله عنها لما قدمت البصرة فلم تأذن لهن فى الدخول عليها.

وأيضاً فإن الله تعالى ندب إلى اتخاذ الولادة بقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ البقرة ٢٢٣، قيل: الولد، وقال ﷺ: (تَنَاكَحُوا تَنَاسَلُوا فإنّي مُكَاثِرٌ بكمُ الأُممَ يومَ القيامةِ) وقوله ﷺ: (خَيْرُ نسائِكُم الودودُ الوَلودُ) وقوله: (سوداء ولودٌ خيرٌ من حسناءَ لا تَلِدُ) ومن بركات المرأة أن تيسر رحمها أحوج ما يكون إلى الجماع إذا طهرت من الحيض، وفى هذا الوقت أكثر ما يعبر النساء بالحمل، وأحمد ما يكون المولود عاقبة إذا علق به بعد الطهر، فلهذه المعانى عقب الله عز وجل الأمر بالجماع والولد بعد الطهر فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ البقرة ٢٢٢، ولأضدادها فى الكراهة والذم أمر الله تعالى باعتزال النساء فى المحيض. ويقال: أن كل من كان مجنوناً أو مجذوباً أو مختلاً أو فى حالة أو معتلاً مخبلاً وذلك لأن غرسه كان فى سبخة من الأرض فلم يزرع ولم يزك، ومن زرع من حرث طيب زكاً زرعه وهو الغشيان فى الطهر، فلذلك قال: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ النساء ٢٢٢، وقد رخص بعضهم فى العزل رخصة عن رسول الله ﷺ، وكان سعد يعزل.

العزل هو الموءودة الصغرى

قد أنكر علىٌّ عليه السلام على ابن عباس رضي الله عنه فى قوله: إن العزل هو الموءودة الصغرى، وقال: إنها لا تكون موءودة إلا بعد سبع، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ التكوير ٨، أنها ذكرت بعد سبع، ثم تلا قوله عز وجل أطوار الخلقة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ المؤمنون ١٢-١٤، إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ المؤمنون ١٤، أى فى نفخ الروح فيه، قال: فلا يكون موءودة مقتولة إلا بعد هذا السبع الخصال، ولأن الله عز وجل ذكرها فى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ التكوير ١، بعد سبع معان، ثم جمع بينهما فى الفهم فاستنبط ذلك، وهذا من دقيق العلم وغامض الفهم، ولطيف الاستدلال الذى تفرد به عليه السلام لثقوب علمه ونفاذ فطنته وخفى استدلاله.

الجماع والطهارة

فلا يجامعهن حتى يطهرن، فإذا تطهرن يعنى بالماء ويكره الجماع مستقبل القبلة لحرمة القبلة، وفى الخبر (إذاَ جامعَ أحدُكم أهلَهُ فلا يتجَّردَا تجرُّدَ العِيرَيْن) يعنى الحمارين، وروينا أن رسول الله ﷺ كان إذا جامع غطى رأسه وخفض صوته وقال للمرأة: (عليك بالسكينة) ومن جامع مرة وأراد العود فليغسل فرجه قبل ذلك، فإن احتلم فلا يجامع حتى يغسل فرجه أو يبول، فإن جامع بعد احتلام من غير غسل خيف على ولده إن كان من جماعه أن يصيبه لمم من الشيطان، ويكره الجماع فى أول الليل لئلا ينام على غير طهارة، فإن الأرواح تعرج إلى العرش فما منها طاهر أذن له فى السجود، وما كان جنباً لم يؤذن له، والرؤيا أيضاً على طهارة من غير جنابة وعلى وضوء أصح وأفضل، إلا أن يغتسل ثم ينام، فإن لم يغتسل وجامع فلا ينام ولا يطعم حتى يتوضأ وضوءه للصلاة وقد جاء رخصة فى النوم بعد الجماع من غير أن يمس ماء، فعله رسول الله ﷺ وأنا أكره أن يحلق الرجل رأسه، أو يقلم ظفره أو يستحد أو يتور أو يخرج دماً وهو جنب، فإن العبد يرد عليه جميع شعره وظفره ودمه يوم القيامة، فما سقط منه من ذلك وهو جنب رجع إليه جنباً، وقيل طالبته كل شعرة بجنابتها.

ولا يحل للرجل من امرأته إلا الفرج لا غير على أى حال شاء، ومن جامع فليستمهل على أهله، وليتوقف حتى تقضى هى نهمتها، كما قضى هو نهمته، فربما أخر إنزال المرأة بعد الرجل فيكون ذلك كريهاً إليها، فإن علم أنها قد سبقت بالشهوة فلم يحتج إلى توقف، وليس يخفى سبقها بالشهوة على فطن. وأوفق ما يكون الجماع بينهما إذا اتفقت الشهوتان منهما معاً، وأكثر ما يكون التباغض بين الزوجين لاختلافهم من طبع الإنزال، يكون طبعه سابقاً لطبعها أيضاً. وكان بعض الحكماء الأدباء لا يتأخر عن المرأة حتى يستأمرها فى ذلك.

وينبغى أن يعلمها، لأن المرأة إذا بلغت واحتلمت يجب عليها الغسل كما يجب على الرجل، فإن فى ذلك سُنة، لأن أم سليم سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فأمرها بذلك، وقال: (نِعْمَ النساءُ نِسَاءُ الأَنصارِ، لاَ يَمْنَعُهُنَّ الحياءُ أن يَتَفَقَّهْنَ فى الدينِ) وإذا كانت المرأة حائضاً اتزرت بمئزر صغير من حقويها إلى أنصاف الفخذين، وكان له المتعة بجميع جسدها كيف يشاء إلا تحت المئزر. واستحب للرجل إذا دخل فى لحافها أن يتزر بحقو صغير فى وسطه وهو المئزر لئلا يتجرد عرياناً، فإن هذا من الأدب، ويضاجع الرجل الحائض كيف شاء وتناوله ما شاء ويؤاكلها، ولا يجانبها فى شئ من الأشياء إلا الجماع فى الفرج.

حكم الطلاق والتحليل

ينبغى للمتزوج أن يعرف حكم الطلاق، فإن عرض له الطلاق طلق واحدة واحدة فى طهر لا جماع فيه، لأن التطليقة الواحدة إذا انقضت عدة المرأة منها بحيض أو أشهر تعمل عمل التحريم بالثلاث سواء، إلا أنه يربح فى التطليقة الواحدة أربع خصال، إحداهما موافقة الكتاب والسُنة، والثانية تيسير العدة عليها، والثالثة سرعة خروجها منها، فخروجها من الطلاق محتسب من الطهر الذى طلقها فيه من غير جماع، والرابعة هو أنه إن ندم على طلاقها كان له رجعتها فى العدة، من غير إحداث عقد ثان ولا مهر آخر، وإن أحب رجعتها بعد انقضاء العدة كان له تزويجها ثانية من غير زواج ثان تحدثه.

وهذا كله معدوم مع الثلاث دفعة واحدة، وموجود فيه التحريم، وإن ندم لم يجعل الله له مخرجاً، لأنه لا تحل له إلا بعد زوج، ويخسر العبد خروج المرأة من يده، فإن ابتلى بهواها

يحتاج لانتظار فراغ الزوج الثانى، أو التجأ أن يعمل فى تزويجها لغيره فيكون محللاً لنفسه ومفسداً لنكاح الثانى بالتحليل فيقع فى ثلاث معان من المعاصى وقد لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له. وقال بعض العلماء: إن نكاح الأول بعده على التحليل لا يجوز أيضاً، وهذا كله ثمرة الجهل ومخالفة السنة وقد قال الله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ الطلاق ١، ثم قال سبحانه: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ الطلاق ١، يعنى ندماً من المطلق، فإذا كان قد طلق تطليقة واحدة أو اثنين حلت له من العدة من غير عقد وبعد انقضائها بغير زوج، ثم قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ الطلاق ٢، أى يتق الله فيطلق فى العدة، يجعل له مخرجاً فى جواز الرجعة كما ذكرناه. ومن طلق ثلاثاً مرة واحدة أو طلق فى الحيض وقع الطلاق، وحرمت المرأة ولم تحل له إلا بعد أن تتزوج غيره، وبذلك يكون قد خالف السُنة ووافق كراهة الأئمة بآثار قد كثرت فى ذلك عن رسول الله ﷺ، وعن عمر وابنه، وأبى بن كعب، وزيد ابن ثابت، وابن عباس، وجملة من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وورثته والتابعين.

تم بعون الله

الفهرس

مقـدمة ٥

الباب الأول

الـدين ٦

تعـريف الـدين ٦

حكمـة اختصاص الإنسـان بتحمل الأمانة ٦

القـوة التـى لا تفـارقه ٧

القـوة المفـارقـة ٧

عنـاية الله تعـالى بالإنـسان ٧

إن الـديـن عنـد الله الإسلام ٩

حكمـة إنزال الكتب السـابقة ٩

الـدين الجـامع ١٠

الباب الثانى

أسس الـدين الإسلامى ١٣

المبحث الأول

فى العقيدة ١٣

الغـرض من دراسة علم التوحيد ١٤

طـريقـة تعليـم العقيـدة ١٦

علم التوحيـد ١٧

العقيدة التى يجب أن يعقد المسلم قلبه عليها..... ١٨

الآثـار كنوز لم تفك رمـوزها ١٨

كيف يبلغ العقل والنفس درجة الإيمان الكامل؟ ١٩
العقيدة المأخوذة من كتاب الله تعالى وبيان رسوله ﷺ ٢١

المبحث الثانى

تقديس الله تعالى ٢٣
١ الوجود ٢٣
معنى صفة الوجود ٢٥
الإيمان سابق العلم ٢٧
٢ القِـــدم ٢٨
٣ البقـاء ٢٩
٤ مخـالفته تعـالى للحـوادث ٢٩
حقيقة بـديهية ٣٠
٥ قيامه تعـالى بنفسه ٣١
٦ الـوحـدانيـة ٣٣
التوحيد هو رأس المال ٣٤
ذنوب من كمل التوحيد فى قلوبهم ٣٥
ميزان التوحيد ٣٦
تقديس الجناب المقدس عما لا يليق به سبحانه ٣٦
أهل الملكوت ٣٨
صفات المعانى السبعة ٣٩
١ القـدرة ٣٩
فوق الأنوار أسرار ٤١
٢ الحيـــاة ٤١

٣ العلـم ٤٣
أنوار صفـة العلم ٤٣
٤ الإرادة ٤٥
كمال اليقين بمعـانى إرادة الله ٤٦
٥، ٦ السمع والبصر ٤٨
٧ الـكلام ٥٠
مزيد بيـان فى صفة الكلام لله سبحانه وتعالى ٥١

المبحث الثالث

من علوم القـرآن ٥٢
تلاوة القـرآن حـق تلاوته ٥٢
المختـصر للإيجـاز ٥٢
المبـدل المضـمر ٥٣
المكنـى المضمر ٥٤
المبـدل المختـصر ٥٥
المنقـول المنقلب ٥٥
المضمر المختـصر ٥٥
المبـدل منه ٥٥
الموصول المكرر ٥٦
المكـرر المـؤكـد ٥٦
المكنـى المبهم المشتبه ٥٧
الموحـد ومعنـاه الجمع ٥٨
الجـمع المراد به الواحد ٥٩

الجمع المكنى ٥٩
المقدم والمؤخر والمعطوف ٥٩
نبهنا بيسير على كثير ٦٢
أهل الله وخاصته ٦٣
معاملة العبد فى التلاوة ٦٤
وصف التالين للقرآن ٦٥

المبحث الرابع

فى النبوات ٦٦
الإنسان إجمالاً ٦٦
حكمة بالغة ٦٧
الرسل أنوار تضئ لمن هداهم الله ٦٨
معرفة خاتم الأنبياء ٦٩
نسبه الشريف ونشأته ﷺ ٦٩
دعوته ﷺ ٧٠
دلائل نبوته ﷺ ٦٩
أمداده ﷺ بأنواع المعجزات ٧٤
مقابلة معجزاته ومعجزات الرسل السابقين ٧٥
جمعه للمعارف والعلوم ٧٩
من خصائصه وكراماته وباهر آياته ٨١
معجزات الرسل هى بعض ما أمده به خاتم الأنبياء ٨٢
من أعظم معجزاته ﷺ القرآن المجيد ٨٤
العجز عن الإتيان بمثل أقصر سورة ٨٦

القرآن الكريم دعوة وحجة ٨٨
العصمة ٨٩
العصمة للأنبياء بعد الوحى والعناية قبله ٩٠
الرسل عليهم الصلاة والسلام أفضل من الملائكة ٩٢
الرد على من يقول بغير هذا ٩٣
الإنسان الكامل كعبة الأرواح العالية ٩٥
الكرامات الباهرة ٩٥
عقيدة المؤمن ٩٧
كثائف الظلمات ٩٨
رفعة الإنسان بالإسلام ٩٩
الأصل الذى أسس عليه الدين ١٠٠

الباب الثالث

العبادات ١٠١

الفصل الأول

تعريف العبادة وأقسامها والغرض منها ١٠١
تعريف العبادة ١٠١
أقسام العبادة ١٠٢
١ العبادة علم وعمل ١٠٢
٢ الواجب والمندوب ١٠٣
٣ العلوم من حيث الكيفية ١٠٤
الغرض من العبادة ١٠٥
بيان الأمراض والأجناس التى لا يمكن إزالتها إلا بالشرع ١٠٧
النجاسات المخلوقة فى ذات الإنسان وعلاجها ١٠٨

الفصل الثانى

بيـان فى العبـادات ١١٠

الـــصـلاة ١١٠

أولاً: المحـافظة على الطـهارة ١١٠

ثانيـاً: المحافظة على سنن الـصلاة وأعمالها ١١٢

ثالـثاً: المحـافظة على روح الصلاة ١١٣

فـرار المـصلى إلى الله وهـو فى صلاته ١١٤

أسرار وأحـوال وأنـوار ١١٥

الـزكـاة والـصـدقـة ١١٦

المحـافظة على الـزكاة والصـدقة ١١٧

كـشف شئ من رمـوز الـزكـاة ١١٩

تزكية النفس ١٢١

الصـيام ١٢١

الـصوم عبـادة وشفاء وتـزكية ١٢٢

مقـدار الصوم وأسراره ١٢٣

الحـج ١٢٤

مـن مشـاهد الحج ١٢٥

أعـمال الحج ١٢٦

آداب الحج ١٢٦

أسرار الحج ١٢٧

الباب الرابع

المعاملات ١٢٩

معاملة النسـاء وآداب عشرتهن ١٢٩

الإنسان مفطور على الضرورة والمثنوية ١٢٩
النكاح فرض مع الحاجة وسُنة على الكفاية ١٣٠
ترك التزوج أفضل للمريد ١٣١
نكاح الأمة خير من العنت ١٣٣
كراهة الاستمناء وتحريمه ١٣٤
فضل النكاح والندب إليه ١٣٤
النساء على أوصاف النفس ١٣٨
من وصايا بعض العرب لأبنائهم ١٣٨
السر فى أن الله تعالى أباح الجمع بين الأربع ١٣٩
العدل بين الأزواج ١٤٠
ما يستحب للرجل إذا أراد التزويج ١٤٢
أسس المعاملة والسلوك بين الزوجين ١٤٤
تحصيل ما يلزم الزوجين من العلم ١٤٥
تحرى المكسب الحلال ١٤٥
طاعة الزوجة لزوجها ١٤٦
رفق الزوج بزوجته ١٤٧
الغيرة ١٤٨
إحتمال الهفوات والصبر على الأذى ١٤٩
الطلاق مباح إلا أنه مكروه بغير سبب ١٤٩
النشوز ١٥٠
حسن العشرة ١٥٠
الزوج سيد زوجته ١٥١
من وصايا بعض العرب لبناتهم ١٥١

حكم العزل ١٥٢
العزل دقيقة من الشرك الخفى ١٥٢
العزل هو الموءودة الصغرى ١٥٤
الجماع والطهارة ١٥٤
حكم الطلاق والتحليل ١٥٥
الفهـــرس ١٥٧

almashahed
www.almashahed.com